حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

فصلية علمية محكمة - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

المكان وتشكلات العنف
في رواية بثينة العيسى (خرائط التيه)
Place and Violence Formations in Buthaina Elissa's Novel (kharaet altyh)

د. دلال بنت بندر المالكي

قسم اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المملكة العربية السعودية

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

مجلس
النشر العلمي

ISSN: 1560 - 5248

الرسالة 634 - الحولية 44

1445 هـ / ديسمبر 2023 م

• ثمن العدد

الكويت: 500 فلس، البحرين: دينار واحد، قطر: 10 ريالات، الإمارات 10 دراهم، السعودية: 10 ريالات، عمان : ريال واحد.

ثمن النسخة في دول الوطن العربي ما يعادل دولاراً واحداً.

ثمن النسخة في الدول الأجنبية ما يعادل ثلاثة دولارات.

• الاشتراك السنوي (أفراد):

سنة واحدة: الكويت 4 دينار كويتي، الدول العربية: 6 دينار كويتي، الدول الأجنبية 22 دولار.

سنتان: الكويت 7 دينار كويتي، الدول العربية: 10 دينار كويتي، الدول الأجنبية 37 دولار.

ثلاث سنوات: الكويت: 10 دينار كويتي، الدول العربية: 14 دينار كويتي، الدول الأجنبية 52 دولار.

أربع سنوات: الكويت: 13 دينار كويتي، الدول العربية: 18 دينار كويتي، الدول الأجنبية 67 دولار.

• الاشتراك السنوي (مؤسسات):

سنة واحدة: الكويت 22 دينار كويتي، الدول العربية: 22 دينار كويتي، الدول الأجنبية 90 دولار.

سنتان: الكويت 37 دينار كويتي، الدول العربية: 37 دينار كويتي، الدول الأجنبية 150 دولار.

ثلاث سنوات: الكويت: 53 دينار كويتي، الدول العربية: 53 دينار كويتي، الدول الأجنبية 210 دولار.

أربع سنوات: الكويت: 67 دينار كويتي، الدول العربية: 67 دينار كويتي، الدول الأجنبية 270 دولار.

جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية استفسارات أخرى

توجه إلى رئيس تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب: 17370 الخالدية – الكويت: 72454 – تلفون: 24830256 – فاكس 24830256

ISSN 1560 - 5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

E-mail: aass@Ku.edu.Kw

http://apc.kuniv.edu.kw/AASS/

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى:

EBSCO Publishing Products

دار المنظومة: www.mandumah.com

UIrich's Periodicals Directory 263117

إصدارات مجلس النشر العلمي

مجلة العلوم الاجتماعية 1973، مجلة الكويت للعلوم والهندسة 1973، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية 1975، لجنة التأليف والتعريب والنشر 1976، مجلة الحقوق، 1977، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية 1980، المجلة العربية للعلوم الإنسانية 1981، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية 1983، المجلة التربوية 1983،المجلة العربية للعلوم الإدارية 1991.

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلس النشر العلمي ـ جامعة الكويت

فصلية علمية محكمة تتضمن مجموعة من الرسائل
تعنى بنشر الموضوعات التي تدخل في تخصصات
العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب

الحولية الرابعة والأربعون
الرسالة الرابعة والثلاثون بعد المئة السادسة
1445 هـ / 2023م

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت

هيئـة التحريـر

- أ.د. **تغريد محمد القدسي**
رئيسة هيئة التحرير
قسم دراسات المعلومات – جامعة الكويت

- أ.د. **باقر سليمان النجار**
جامعة البحرين – البحرين
أستاذ زائر بقسم الاجتماع – جامعة الكويت

- أ.د. **نعمان محمود أحمد جبران**
جامعة إربد – الأردن
أستاذ زائر بقسم التاريخ – جامعة الكويت

- أ.د. **عدنان يوسف العتوم**
قسم علم النفس – جامعة اليرموك – الأردن

- أ.د. **مشاعل الحملي**
قسم اللغة الإنجليزية وآدابها – جامعة الكويت

- د. **عبد اللّه محمد الجسمي**
قسم الفلسفة – جامعة الكويت

- د. **إبراهيم ناجي الهدبان**
قسم العلوم السياسية – جامعة الكويت

- د. **أحمد مبارك الحصم**
قسم الجغرافيا – جامعة الكويت

- د. **أسعد هاشم الصالح**
قسم اللغة العربية – جامعة انديانا
الولايات المتحدة الأمريكية

- **مـها إبراهيـم المسعـد**
مديرة التحرير

الهيئـة الاستشارية

- **أ.د. باسـل حاتـم**
الجامعة الأمريكية - الشارقة
الإمارات العربية المتحدة

- **أ.د. إبراهيـم السعافين**
قسم اللغة العربية - الجامعة الأردنية

- **أ.د. حمدي حسن أبو العينين**
كلية الإعلام - جامعة مصر الدولية

- **أ.د. سـاري حنفـي**
رئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتمـاع
الجامعة الأمريكية - بـيروت

- **أ.د. منـى بيكـر**
جامعة مانشستر - المملكة المتحدة

- **أ.د. عبدالقادر الفاسي الفهري**
قسم اللغة العربية - جامعة محمد الخامس

- **أ.د. عبد الله الوليعي**
قسم الجغرافيا - جامعة الملك سعود

- **أ.د. مـأمـون فنـدي**
مدير معهد لندن للدراسات الإستراتيجية
المملكة المتحدة

قواعد النشر في حَوْليّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة

- حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية: فصلية تنشرُ البحوثَ والدِّراساتِ الأصيلةَ باللّغتَيْن العربيَّةِ والإنجليزيَّة في مجال العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة ويتوفر فيها ما يأتي:
- أنْ تُمثِّلَ الدِّراسةُ إضافةً جديدةً في حقل التّخصّص.
- لم يسبق نشر الدراسة بأي صورة كانت، ولم يسبق أيضًا تقديمها للنشر إلى جهة أخرى أثناء ورودها إلى الحوليات. ويلتزم الباحث بكتابة إقرار وتعهد بأن البحث المقدم لم يسبق نشره في أي وعاء نشر، أو أرسل إلى جهة أخرى.
- ألا يقل عدد كلمات الدراسة عن (15000) كلمة، شاملة المراجع والهوامش والجداول (بحدود 50 صفحة) وألا يزيد عدد الكلمات عن (60000) كلمة في حدود 200 صفحة.
- يطبع البحث بواسطة معالج النصوص Microsoft Word وعلى مسافة ونصف، وبنط Simplified Arabic 14 للبحوث باللغة العربية، وعلى مسافتين، وبنط Times New Roman 12 في حالة البحوث باللغة الإنجليزية. على أن يكون عنوان البحث معبراً عن الدراسة وبحدود 15 كلمة.
- يرفق الباحث ملخصاً للبحث، مطبوعًا باللغتين العربية والإنجليزية، في حدود (250) كلمة. على أن يحوي ملخص البحث: هدف الدراسة وأسئلتها، منهج الدراسة المستخدم، أبرز النتائج المستخلصة وأهم الإستنتاجات، إضافة إلى الكلمات الدالة (المفتاحية).
- يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة، مطبوعة باللغتين العربية والإنجليزية، تشمل أهمّ مؤلفاته وأبحاثه.
- تقدم الخرائط والأشكال والرسوم (إن وجدت) بأصولها الصالحة للطباعة بصيغة JPG، وبمستوى دقة 600 × 800.
- في حالة رغب الباحث بنشر الصور أو الخرائط أو الأشكال البيانية الملونة يلتزم بدفع تكاليفها.
- يراعي الباحث عند كتابة البحث الالتزام بالنسخة الأخيرة (السابعة) من نظام جمعية علم النفس الأمريكية American Psychological Association (APA7) من حيث كتابة المراجع والهوامش في متن البحث، إضافة لقائمة المراجع. على الوجه الموضح أدناه.
- كتابة المرجع في المتن: اسم العائلة للمؤلف متبوعًا بفاصلة، ثم سنة النشر. (يرجى الرجوع إلى دليل التوثيق وفقًا لنظام (APA7).

مثال (Courtois, 2001)

- قائمة المراجع: يرجى الرجوع إلى دليل التوثيق وفقًا لنظام (APA7) للتفاصيل.

Jones, J. (2005). Writing with style. Style Writing Journal, 12 (6),1433

ويمكن زيارة موقع APA لمعرفة القواعد الخاصة بنظام (APA7) على:

http://www.apastyle.org

- يجب أن تشتمل جميع البحوث على قائمة المراجع كاملة في نهاية البحث، على أن يكون بنط الكتابة بالنص الروماني (Times Roman Script).
- لمعرفة قواعد النشر وأخلاقياته الرجاء مراجعة موقع الحوليات الإلكتروني:

http://apc.kuniv.edu.kw/

شروط قبول البحوث في الحوليات:

- يجب أن يقدم البحث عن طريق نظام الـ OJS وليس البريد الإلكتروني؛ ليتسنى للحوليات البدء بالتقييم. - تقبل الحوليات البحوث التي تقدم إلكترونياً فقط من خلال الموقع:

http:// journals.KU.edu.KW/aass

- لا تقبل مجلة الحوليات البحوث التي سبق نشرها بأي شكل أو وسيط.
- لا تقبل مجلة الحوليات نشر أبحاث الماجستير أو الدكتوراه أو أي مستلات منها.
- لا ترد ولا تسترجع أصول البحوث المقدمة للنشر، سواء نشرت أم لم تنشر.
- لا يجوز نشر البحوث مع جهات أخرى إلا بعد موافقة الحوليات على ذلك وإذا ثبت نشرها فستتخذ إدارة الحوليات الإجراءات القانونية المتبعة بهذا الشأن.
- يمكن للباحث نشر بحثه مع جهات أخرى، بعد الحصول على إذن كتابي سابق من رئيس التحرير، وبعد انقضاء ثلاث سنوات على نشره في الحوليات.
- يعرض البحث الذي تتوافر فيه القواعد المذكورة سابقًا وبعد موافقة هيئة التحرير، على محكمين إثنين لتقرير مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة، ويكون التحكيم ثنائي الحجب (Double Blind Review).
- تمنح المجلة للباحث ثلاثين نسخة مجانية مطبوعة من بحثه المنشور.
- ترسل جميع المراسلات الخاصة بالحوليات ما عدا البحوث، إلى رئيس التحرير عن طريق البريد الإلكتروني للمجلة.

رئيس تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب : 17370 الخالدية

رمز بريدي : 72454 - الكويت

ISSN 1560 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

http://apc.kuniv.edu.kw/AASS

E-mail: aass@ku.edu.kw

الاصدار الثاني – الحولية الرابعة والأربعون – ديسمبر 2023م

يصدر هذا العدد مع نهاية عام 2023 ونحن نشرف على بداية العام الجديد نتمنى أن يكون عام خير ورفاه، عام عدل وسلام على الجميع. أما نحن في الحوليات؛ فلا نزال نصارع الوقت لنشر إصداراتنا في وقتها، ولعلنا في ذلك نعدّ مثالاً حيّاً لما تعانيه صناعة النشر في الوطن العربي، ناهيك عنها في الكويت.

الرسالة 633 هي الأولى في هذه الحولية وجاءت تحت عنوان *جدلية السرد والحوار: قراءة في خمريتين لأبي نواس*، وأعدّها الدكتور كمال محمَّد السَّيد محمَّد عبد البَر من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة. وهي دراسة مقارنة بين نصّبن لقصيدتين لأبي نواس، يختمها الباحث بدعوة الباحثين الحاليين أن لا يهملوا النصوص التراثية العربية، وأن يعطوها من جهدهم وطاقتهم، ويشبعوها بحثاً ودراسة.

الرسالة 634 هي الثانية في هذه الحولية وجاءت تحت عنوان *المكان وتشكلات العنف في رواية بثينة العيسى (خرائط التيه)* للدكتورة دلال بنت بندر المالكي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية. وفيها تقرّب الباحثة الأشكال العديدة للعنف أمام القارئ، كما وردت في الرواية المذكورة، وتحاول الإجابة عن سؤال مفاده: كيف يعكس المكان نوع العنف؟

الرسالة الثالثة في هذه الحولية هي الرسالة 635 وأدرجت تحت عنوان *المسيحية من دعوة محلية إلى ديانة عالمية: دراسة اجتماعية فلسفية في أسباب الانتشار وآليات التنصير في العالم الإسلامي* للدكتورة وسيلة يعيش خزار من جامعة الشارقة والدكتورة نعيمة إدريس بنت مبروك من الجزائر. تبحث هذه الرسالة في تحوّل الديانة المسيحية من دعوة محلِّيّة مبنيّة على التسامح والمحبّة إلى دعوة عالمية تمتلك صفات المنافسة، على يد المبشّرين، كما تبحث في تخوُّفِ المتعصبين المسيحيين من الإسلام المتسارع في الانتشار؛ إذ رأوه منافساً لهم؛ ومن ثم عمدوا إلى مواجهته بوسائل غير مشروعة، من الواجب التصدّي لها؛ كالاستشراق.

الرسالة الرابعة هي الرسالة 636 وعنوانها *المفارقة في النص*، للدكتور صبري الحيقي من وزارة الثقافة باليمن. تبحث الدراسة في طبيعة مصطلح المفارقة ووظيفته، ويفسر فيها الباحث الخلط بين المفارقة والتهكم، ثم يعرّج على الاستخدامات العديدة للمفارقة، ويوضح بإسهاب الفرق بين المفارقة في النص الأدبي والمفارقة في الحياة اليومية.

أما الرسالة الخامسة 637 فهي بعنوان *أسلوب التعجب في العربية: دراسة وصفية إحصائية*، للدكتورة حليمة أحمد عمايرة من قسم اللغة العربية في جامعة البلقاء التطبيقية بالأردن. وتعرض لأسلوب التعجب في اللغة العربية، إحصائياً، في عدد من النصوص، وتعرّج على استخداماته في القرآن الكريم وعيّنة من النصوص الأدبية؛ لتخلص إلى ما طرأ على استخدامات هذا الأسلوب من تغيير.

الرسالة السادسة 638 بعنوان *أسواق العسكر ومنظومتها التجارية عبر عصور الحضارة الإسلامية: دراسة تاريخية منذ القرن الأول حتى نهاية القرن التاسع الهجري 1:9 هـ/7:15م*، للدكتور عطية فتحي الويشي من قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية القانون الكويتية العالمية. وفيها يتناول أسواق العسكر في الدول الإسلامية العديدة وأهميتها، ودواعي تأسيسها بدءاً بالقرن الأول وانتهاء بالقرن التاسع الهجري، وعرّج على الأثار الاجتماعية لأسواق العسكر، التي كانت جزءاً لا يتجزأ من النظم الاقتصادية للدول.

والرسالة الأخيرة في هذا الإصدار هي الرسالة 639 وجاءت تحت عنوان *تأويل الشطح في قول الحلاج: «أنا الحق»*. وهي تبحث في موضوع الشطح واستخداماته، وبخاصة في الفكر الصوفي، وهو موضوع قد يقود إلى تأويلات لا تحمد عقباها، كما تتناول نظرة الفلاسفة المسلمين؛ مثل الرازي، وابن خلدون، والغزالي، إلى الفكر التصوّفي وإمكانيات تأويله التي قد تقود إلى التنكيل بالتعبير وبالشخص.

أتمنى لجميع القراء الأعزاء قراءة ممتعة، عبر التنقل بين هذه الموضوعات المتنوعة التي نحرص على توافر التباين بينها؛ لتكون محوراً لمناقشات ثرية، وحوارات مثمرة، بين أهل الاختصاص على وجه الخصوص، والقراء على وجه العموم.

أ.د. تغريد القدسي - غبرا
رئيسة التحرير

Doi 10.34120/0757-044-634-001

الرسالة (634)
قدمت في : 2021/3/15
أجيزت في: 2021/6/16
● **للاستشهاد:**
المالكي، دلال بنت بندر. (2023). المكان وتشكلات العنف في رواية بثينة العيسى (خرائط التيه). *حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية* (44)634 .

المكان وتشكلات العنف
في رواية بثينة العيسى (خرائط التيه)
Place and Violence Formations in Buthaina Elissa's Novel (kharaet altyh)

د. دلال بنت بندر المالكي
قسم اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المملكة العربية السعودية

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ـ الحولية الرابعة والأربعون 1445هـ/2023م

المؤلف:

د. دلال بنت بندر المالكي

- أستاذ مشارك في كلية اللغة العربية، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض المملكة العربية السعودية.
- حاصلة على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها عام 1437هـ من جامعة الملك سعود عن بحث بعنوان **القارئ المقاوم تعارض القيم الجمالية والأيديولوجية بين النص والمتلقي**، وتمت طباعة البحث عن دار الانتشار 2016م.

من الإصدارات الأدبية:

1- ديوان شعر بعنوان: (عبرتني حلمًا).

2- ديوان شعر بعنوان (برزخ التأويل فضاء الروح).

3- ديوان شعر بعنوان (واستيقظت)، ومجموعة قصصية بعنوان (تسابيح في محراب جدتي).

4- رواية بعنوان (أوراق اللوز).

من المشاركات العلمية:

1- بحث بعنوان: المتنبي الشخص والشخصية في رواية العصفورية.

2- بحث بعنوان: **قراءة في أدب الرسائل عند حمزة شحاتة**.

3- بحث بعنوان: ظاهرة الهشاشة اللغوية في الرواية الشبابية.

4- بحث بعنوان: الموروث الجنوبي في رواية (رقص) الرقص أنموذجا.

5- بحث بعنوان: المكان في الرواية السعودية، الشمال والجنوب أنموذجًا.

6- بحث بعنوان: السيرة الذاتية في البحث الجامعي– مقاربة في أطروحة عائشة الحكمي،

7- بحث بعنوان: تداخل العتبات النصية مع البنية الروائية الشبابية –ماجد سليمان أنموذجا.

8- بحث مطبوع في كتاب أبو مدين ومسيرة التحديث الثقافي عنوانه: رؤية في مكونات شخصية الفتى مفتاح – الأديب الفلاح، محددات تحليل منظومة القيم في أدب الطفل –نماذج من الدراسات الأكاديمية.

الأبحاث المنشورة في مجلات علمية:

1- بحث منشور بعنوان كتابة الذات في سيرة الغير ، قراءة في كتاب زوربا القرن العشرين/عبدالله الجفري.

2- الشخصية الوطن في رواية ارتطام لم يسمع له دوي لبثينة العيسى.

3- الجسد أشكاله وتحولاته الدلالية في الرواية ، رواية (رقص) أنموذجًا.

4- الشخصية المهمشة وتشكلات الفضاء الروائي: دراسة موضوعية وصفية في رواية هدى بركات (بريد الليل) .

5- طمس الذاكرة، المستويات والمفاهيم، دراسة في رواية سيف الإسلام آل سعود (قلب من بنقلان).

فهرس المحتـوى

الملخص **13**

المقدمة **15**

أهمية الدراسة **15**

تساؤلات الدراسة **15**

أهداف الدراسة **16**

محاور الدراسة **16**

منهج الدراسة **17**

أولًا - حد المفاهيم **18**

1 - حد العنف ومفهومه في المعاجم **18**

2 - مفهوم المكان وتوجيه الفعل الروائي **19**

ثانيًا - بنية المكان وتشكلات العنف **22**

(أ) جدلية الذات بين المكان والعنف **22**

(ب) العنف بين ذاكرتي المكان والوطن **32**

(ج) العنف السياسي: مكان السلطة وسلطة العنف **42**

ثالثًا - تسمية الفصول والدلالة المكانية **59**

الخاتمة **65**

المراجع والمصادر **68**

الملخّص

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى مقاربة تشكلات العنف وتجلياته في ضوء المكان الروائي، وذلك بوصف المكان معادلًا لتدرجات العنف ومستوياته، ومتأثرًا في الآن نفسه، وليس بوصفه مؤثرًا أو محرضًا، لعدة اعتبارات أهمها: أن شخصيات الرواية لا تنتمي للمكان، وليست جزءًا منه، وإنما تلجأ إليه طلبًا للأمان؛ ويسعى البحث إلى اقتراح إجابة عن سؤالين مهمين في الدراسة، وهما: كيف يجسد المكان نوعية العنف؟ وما دور المرجعيات الوافدة على المكان في تشكيل نوعيات العنف؟ وتأتي أهمية دراسة تجليات العنف عبر خريطة المكان؛ من التعدد المكاني الذي حفلت به الرواية، الذي رسمت من خلالها تشكلات العنف الممنهج، وبهذا فتحت الرواية فضاءات متنوعة للمكان، الذي يبرز طبيعة الإنسان، وآلية استغلاله لأعمال العنف الجماعية والفردية، وتكشف عن مشهد الحالة النفسية التي تلبست الشخصيات على اختلاف أدوارهم. **منهج الدراسة**: استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لاستنباط تجليات العنف وأشكاله وصوره عبر التعدد المكاني؛ **نتائج الدراسة**: خلصت إلى أبرز النتائج، وهي: تحد الهوية الإنسانية، والانتماء إلى المكان من أعمال العنف سواء كان العنف في حق البشر أم المكان في شكله المادي. شكلت نوعية المكان الطبيعة نوع الفعل السلوكي والاختراق الأخلاقي ووجهت كذلك حركة الفعل الروائي.

الكلمات الدالة (المفتاحية): الرواية، العنف، السرد، بثينة العيسى، خرائط التيه.

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى المقاربة بين المكان الروائي وإنتاج العنف وتجلياته المختلفة؛ إذ يأخذ مسارات تختلف باختلاف الفضاءات المكانية؛ حيث تتدرج أحداث العنف وتتنوع باختلاف المكان الذي تتم فيه، إضافةً إلى تأثير الانتماءات المكانية والعرقية والاجتماعية للشخوص الذين يمثلون الحدث العنيف.

وتخترق رواية بثينة العيسى (خرائط التيه)، الصادرة في بيروت عن الدار العربية للعلوم ناشرون، 2015م في طبعتها الثانية –وكانت طبعتها الأولى قد صدرت في أول العام نفسه– فضاءات مكانية محظورة، وهي تنقض الفكرة التي تقصر دور المكان في كونه عنصرًا يستجمع العناصر الأخرى، وترى فيه رمزًا دالًّا على ظواهر العنف المختلفة، فيساعد في تكوينها أو مناهضتها وكشفها؛ لذا فإن اختيار هذه الرواية يمثل محاولة للمقارنة بين نوعين من المكان؛ وهما: المكان الذي يمثل العنف مكونًا رئيسًا من مكوناته وصانعًا ومصدرًا له، والمكان الآخر الذي يمثل مكانًا للسلام.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في هذه الرواية تحديدًا؛ في أنها تحوِّل المكان إلى سلاح من أسلحة العنف في أيدي الخاطفين، ويتغير نوع السلاح أو نمط العنف بتغير الفضاء المكاني الذي ينتمي إليه الضحايا بحسب استفادة الخاطفين منهم، أو المكان الذي تجري فيه عمليات العنف؛ فكل مكان يفرض نمطًا معينًا ووسيلة مختلفة للعنف؛ إذ يستوعب الخاطفون طبيعة المكان استيعابًا يجعله يواكب الحدث العنيف الذي يتم في إطاره.

تساؤلات الدراسة

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات التالية:

1– كيف تعاملت طبيعة المكان مع موضوع العنف؟

2– ما الدور الذي لعبته المرجعيات في تجسيد العنف في المكان؟

3- ما مدى مساهمة المكان في تشكيل العلاقات الإنسانية السلبية المكونة للعنف؟

أهداف الدراسة

وإذ تجيب الدراسة عن التساؤلات السابقة؛ فهي تحقق الأهداف التالية:

1- كشف أنواع العنف بحسب طبيعة المكان.

2- إيضاح دور المرجعيات في تجسيد العنف في الأمكنة المختلفة.

3- إبراز العلاقة النوعية بين المكان والإنسان الذي يصنع العنف.

محاور الدراسة

تجيب الدراسة عن تساؤلاتها من خلال ثلاثة مباحث؛ هي:

الأول: حد المفاهيم

1- حد العنف ومفهومه في المعاجم.

2- مفهوم المكان وتوجيه الفعل الروائي.

ويخلص التمهيد إلى ضبط المفهوم لغويًّا، وتشكيل محدداته العلمية والنقدية؛ للوقوف على ما يناسب الدراسة منها، ويسهم هذا التمهيد في تأسيس الجانب النظري للدراسة.

الثاني: بنية المكان وتشكلات العنف

وهو مبحث ينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ يعنى في قسمه الأول بالأماكن التي تشكل فيها العنف بوصفه المعنوي؛ وأثره النفسي على الشخصيات، والتأسيس على تلك الأبعاد في تحريك الأحداث في الرواية.

ويكشف في قسمه الثاني عن أثر امتداد الأبعاد المكانية واتساعها في وقوع العنف الجسدي، واختلاف مستوياته؛ بحسب الأماكن التي يختارها الخاطفون.

ويخلص القسم الثالث؛ إلى أشكال الصراع العالمي للعنف، وتشكلاته السياسية، ذات الأبعاد الكبرى.

وتأتي هذه الأقسام في الصورة التالية:

(أ) **جدلية الذات بين المكان والعنف**

1- غياب الوطن، وتأزم الانتماء.

2- مكة – الخوف والذهول (الهذيان والهستيريا) أثر أول للعنف.

(ب) **العنف بين ذاكرتي المكان والوطن**

1- عسير- مخطط العبور.

2- جازان – صراع البقاء بين الأرض والفلاح.

(ج) **العنف السياسي – مكان السلطة وسلطة العنف**:

1- إسرائيل – الأنا والآخر.

2- مصر – صراعات السلطة والعنف.

الثالث: **تسمية الفصول والدلالة المكانية**

منهج الدراسة

يتجلى المنهج الذي سلكته الدراسة في مستويين؛ ففي المحاور الأولى من الدراسة، التي تهدف إلى التعريف بالمصطلحات والمفاهيم وتحول دلالاتها في الحقول المعرفية؛ تعتمد الدراسة على المنهج الاستقرائي الوصفي؛ لاستنطاق النصوص والوصول إلى المصطلح الذي استقرت عليه الدراسة، وعولت عليه في معالجتها التحليلية؛ كما سعت الدراسة إلى الإفادة من المناهج والنظريات المختلفة بحسب القضايا والموضوعات التي تناولتها في المحاور التالية للمهاد النظري، فقد أفادت من التحليل الاجتماعي للمكان، والتحليل النفسي للشخصيات؛ وذلك لاستكناه تجليات العنف في المكان بأشكاله وصوره ومستوياته المتعددة.

أولًا: حد المفاهيم

1 - حد العنف ومفهومه في المعاجم

تمثل المراجعة المعجمية للمفاهيم محاولة أولى لضبطها، ووسيلة من وسائل فهمها؛ ذلك أن المفاهيم وإن اتسعت دلالتها تظل مرتبطة بالدلالة التأسيسية، والعنف في بيئته الحاضنة معجميًّا يدل على: «الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق. ويقال: عنيف؛ إذا لم يكن رفيقًا في أمره. واعتنف الأمر أخذه بعنف» (ابن منظور، 1994، ص. 257).

ويستعمل لفظ Violence في الدلالة على: «سمة ظاهرة أو عمل عنيف، أو إلحاق الأذى بالنفس أو الغير، وهو الاستعمال غير المشروع أو على الأقل غير القانوني للقوة. فالذي يعمل بالقوة لأجل العدالة يعمل للجميع؛ بينما لا يعمل العنيفون إلا لذواتهم وأحيانًا ضد أنفسهم» (لالاند، 2012، ص. 1554).

ويعرف العنف فلسفيًّا بأنه:

مضاد للرفق ومرادف للشدة والقسوة، والعنيف هو المتصف بالعنف، فكل فعل شديد يخالف طبيعة الشيء، ويكون مفروضًا عليه من الخارج؛ فهو بمعنى ما فعل عنيف. والعنيف أيضًا هو القوي الذي تشتد سَورته بازدياد الموانع التي تعترض سبيله، كالريح العاصفة، والثورة الجارفة. وجملة القول أن العنفَ هو استخدام القوة استخدامًا غير مشروع، أو غير مطابق للقانون (صليبا، 1982، ص. 112).

ويعرفه علماء النفس بأنه: «نمط من أنماط السلوك الإنساني ينتج عن حالة إحباط نفسي عند الفرد أو تكون مصحوبة بعلامات التوتر والاضطراب، مع نية مبيتة؛ لإلحاق الضرر المادي أو المعنوي بكائن حي» (منظمةالمرزوقي، 1990، ص.220).

وتعرفه منظمة الصحة العالمية بأنه:

الاستخدام المتعمد للقوة الفيزيائية (المادية) أو القدرة، سواء بالتهديد أو الاستعمال المادي الحقيقي ضد الذات أو ضد شخص آخر، أو ضد مجموعة أو مجتمع،

بحيث يؤدي إلى حدوث أو (رجحان حدوث) إصابة أو موت أو إصابة نفسية أو سوء النماء أو الحرمان. (منظمة الصحة العالمية جنيف، 2002، ص.5). هكذا درج توظيف مصطلح العنف في استخدام القوة المعنوية والجسدية استخدامًا غير مشروع اجتماعيًّا وقانونيًّا؛ للتأثير على إرادات الغير (بدوي، 1982).

وتفسر هذه التعريفات النفسية والاجتماعية والقانونية حالةَ العنف بأنها: سوء استخدام للقوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والجسدية، كما أنه يمثل النتيجة الحتمية للصراع الداخلي للذات، أو الصراع الخارجي على مستوى الأفراد والجماعات، وهو يظهر في صورة سلوك مؤذٍ؛ بهدف تعمُّد إيقاع الضرر الذي يتشكل في صورتين؛ الأولى: معنوية تؤثر على الذات بما يصيبها من الرعب والهلع، والثانية: جسدية قد تحدث بالضرب أو القتل أو التعذيب، وفي كلتا الحالتين، تهدد الأمن والاستقرار النفسي للأفراد، حين يكون ذلك العنف موجهًا إلى الأفراد، في حين أنها تهدد الأمن والاستقرار الاجتماعي الجمعي إذا وجِّهت إلى مجتمع وشكلت ظاهرة بارزة فيه، ولا يكون العنف جريمة إلا إذا انتهك حقًّا من الحقوق الإنسانية.

والخلاصة أن العنف: «نوع من الانحراف السلوكي يشتمل على المبادرة والاعتداء، وقد يستخدم بصفة فردية أو بصفة جماعية، ضد فرد أو مجموعة أفراد؛ من أجل فرض رأي معين» (أبو العلاء، 1998، ص. 164) ، وإن ظهر في صورة جماعية فإنه ينتمي في روحه إلى فرد يتصف بالأنانية، ومنه تتكون الجماعة العدائية.

2 - مفهوم المكان وتوجيه الفعل الروائي

اهتمت الدراسات السردية الحديثة بالمكان الروائي؛ لأنه حد أساسي في بناء النص الروائي، وعلى الرغم من وجود مرادفات نقدية للمكان الروائي كالفضاء والحيز، فإن الدراسة آثرت استخدام مصطلح المكان؛ لأنه يدل مباشرة على الإطار الجغرافي المستهدف، وهو المعني بالدراسة. في حين تتسع دلالة المرادفات الأخرى لتشمل معاني أخرى غير المكان، فالمكان الروائي في هذه الدراسة يحيل على البيئة الطبيعية للمكان مدينةً أو قرية أو بحرًا أو مكانًا صحراويًّا، كما يتناول ما تتضمنه تلك التفاصيل المكانية، فالاشتغال في هذه الدراسة يتركز على المكان بصورته

الطبيعية الفاعلة في الشخصيات والمتأثرة به في خلق ممارسات عنيفة سلبًا وإيجابًا.

ويدل المعنى اللغوي للمكان على: «الموضع، وجمعه: أمكنة وأماكن» (ابن منظور، 1994، ص. 414)، ويعرف فلسفيًّا بأنه: «الحاوي للموجودات المتكاثرة، ومحل التغيير والحركة في العالم المحسوس عالم الظواهر الحقيقي» (عبدالمعطي، 1984، ص.124). كما يعرف بأنه: «الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده، ويرادفه الحيز» (صليبا، 1982، ص.412)؛ وعليه فإن: «كل الأحاسيس مكانية» (لالاند، 2012، ص.363)، فهناك مكان لمسي، ومكان بصري، ومكان حسي روحي؛ مما يعني أن حضور المكان: «لا يتوقف على المستوى الحسي، وإنما يتغلغل عميقًا في الكائن الإنساني، حافرًا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءًا صميمًا منها» (حسين، 2000، ص. 60).

وتأتي أهمية المكان للإنسان من خلال تأثيره على وعيه، وإدراكه في التعامل معه، وانسيابه في فكره وعواطف نفسه (النصير، 1986)، فيصبح المكان عدوًّا حين نجهله، ونهمل تفاصيله، أو تغيب عنا، فهو يرتبط بحرية الإنسان في علاقة جدلية: «وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها» (قاسم، 2002، ص.45).

ويشكل المكان في الرواية ركنًا أساسيًّا تقوم عليه العملية السردية؛ إذ يعكس الأبعاد النفسية والأيديولوجية والاجتماعية والثقافية للشخصية: فـ «يساهم المكان بدلالاته في الكشف عن أبعاد الشخصيات، مثلما تكشف الشخصيات بدلالاتها بنية المكان وعلاقاته، فظهور الشخصيات ونمو الأحداث التي تساهم فيها هو ما يساعد على تشكيل البناء المكاني في النص» (بحراوي، 1990، ص.29)؛ وكلما تعدد المكان وظهرت ازدواجيته عكس ذلك تأزمًا نفسيًّا، وهروبًا من شيء ما (القاضي وآخرون، 2010)؛ وعليه فيمكن القول بأن التشكيلات والتسميات المختلفة المناطة بالمكان ما هي: «إلا تصنيفات تربط الشخصية بحيزها المكاني، وتكون نابعة من شعور الشخصية وسلوكها تجاه المكان، وخبرتها وإدراكها له إدراكًا حسيًّا» (العدواني، 2011، ص.105)،

وهي بذلك تكوِّن زاوية رؤية داخلية ينطلق منها الروائي، ويحددها في روايته لتشي بمكونات شخصياته الروائية من أفكار ومشاعر وصراعات وحالات ومخاوف تتلون بصبغة ذاتية، وتجسد إحساسها بالمكان، الذي يكشف عن حالتها الشعورية التي تعيشها الشخصية، بل قد يسهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليها (محيي الدين، 2012).

وبقدر حلول الناس في المكان واتحادهم معه يكون تأثرهم به؛ إذ يفرض كل مكان سلوكًا خاصًّا على الناس الذين يلجؤون إليه، والطريقة التي يدرك بها المكان تضفي عليه دلالات خاصة (مجموعة مؤلفين، 1988)؛ إذ يتلوَّن المكان بحسب الحالة الفكرية والنفسية للشخصيات، فللمكان دلالة «تفوق دوره المألوف كديكور، أو كوسيط يؤطر الأحداث؛ إنه يتحول في هذه الحالة إلى محاورة حقيقية، ويقتحم عالم السرد محررًا نفسه من أغلال الوصف» (لحميداني، 1993، ص.71).

وتظل للأماكن خصوصيتها بحسب ارتباط أحداثها وذكرياتها بالشخصية، مهما ابتعدت عنها جسديًّا، فتظل تلك الأمكنة في ذاكرتها، فالمكان هوية العمل الأدبي، الذي إذا افتقد المكانية يفتقد خصوصيته أولًا، وتاليًا أصالته (باشلار، 2000).

ويؤدي المكان دورًا فاعلًا في أحداث الرواية؛ ولذا حدد بعض النقاد ثلاثة أنواع للمكان، يتميز فيها المكان بحسب علاقته ودوره في الرواية، وهي (هلسا، 1989):

1 – المكان المجازي.

2 – المكان الهندسي.

3 – المكان الذي يصف تجربة الشخصيات ومعاناتها وأفكارها ورؤيتها للمكان.

ويمثل المكان في رواية (خرائط التيه) أهمية عظيمة؛ إذ أخذ دور البطولة، حيث يلحظ القارئ الدور الذي أدته الأماكن المختلفة في الأحداث المختلفة التي مارسها الغرباء. وقد رسمت الرواية الأماكن بوضوح دقيق، كما صوَّرت تفاصيلها وأسرارها التي أدركها أولئك الغرباء الذين احتضنتهم، وهم نوعيات مختلفة من البشر لا ينتمون للمكان، واستقروا فيه بصفة غير شرعية؛ ليشعلوا فتيل الأحداث الروائية العنيفة، فطوعوا تلك الأماكن وفقًا لرغباتهم.

وتشترك الشخصيات المعنِّفة مع الشخصية المعنّفة (الطفل)؛ في عدم الانتماء للأماكن التي تجري فيها الأحداث؛ فكلهم يمارس العنف، أو يقع ضحيته خارج إطاره المكاني (الوطن)، كما أن تغيُّرَ الشخصيات النفسي؛ يزداد سوءًا كلما زادت المسافة الفاصلة بينه وبين الوطن، وكذلك الأماكن التي يقع عليها اختيارهم، هي الأماكن المهجورة التي تمثل بدء الحياة؛ لكنها ومع أحداث العنف تفقد روح الحياة التي تمثلها، وتصبح مواتًا لا روح فيها.

ولا بد من الإشارة إلى أن التعامل مع المكان يتم بوصفه الجغرافي، فالتعامل مع المكان في هذه الدراسة بوصفه إطارًا لوصف تجربة الشخصيات مع العنف، وقياس مدى تأثر وتأثير الأمكنة في التجربة العنيفة؛ فالمكان مؤثر نفسي له أبعاده وتأثيراته الشعورية على الشخصيات، لا سيما أن الإنسان هو النتاج الفعلي لكل دلالات المكان والمحرك الرئيس له، وهو العنصر الذي اجتهدت الرواية بوصفها فنًّا في تصوير واقعه وصراعه مع الحياة والناس ورصد تفاعله مع محيطه وقضاياه (زايد، 2003). وقد استغرقت الروائية في سرد عدد من الأمكنة في رواية (خرائط التيه)؛ وهي تفاصيل تزيد المكان تيهًا وضياعًا، وهي في جملتها أماكن مفتوحة تكشف عن الحالة النفسية للشخصيات.

ولن تستطيع الدراسة الوقوف على جميع الأمكنة، لكنها ستركز على المتصل منها بأزمة العنف مباشرة، في تشكله ودلالته.

ثانيًا: بنية المكان وتشكلات العنف

(أ) جدلية الذات بين المكان والعنف

ويظهر أثر العنف بشكله المعنوي على المختطفة سرورًا، وعلى أسرة المختطف بعد وقوع الحدث الفعلي حزنًا وخوفًا يقارب الجنون، ويبدو الغياب عن المكان الأول؛ الوطن، سببًا في حدوث العنف من الخاطفين وعلى الضحايا؛ مما يعني أن الغياب عن الوطن يحدث الأثر الأول في شكل اضطراب نفسي يجرد الشخصيات من الإحساس بالأمان، ويعزز الحدث الرئيس في الرواية وهو الاختطاف هذا الشعور،

وهو الذي يذكر الشخصيات ويلهمها الأهمية التي يمثلها الوطن لمواطنيه؛ مما يجعل الأفعال التالية تتسق والسلوكيات التي كونتها الأوطان في تلك الشخصيات.

(1) الكويت: غياب الوطن، تأزم الانتماء

تعيش الشخصيات في الرواية أزمة الوطن، الذي تختلف دلالته وأثر الانتماء له على الشخصيات باختلاف الأماكن والأجناس والأعراق؛ إذ يتعرض (مشاري) الطفل للاختطاف في أول خروج له من الوطن (الكويت). في حين تصارع الشخصيات الأخرى من الجنسيات المختلفة (إرتريا– الهند) في سعي منها للتأقلم مع الأماكن التي تستوطنها، وتصارع لأجل الحياة. لكن تلك الأماكن ترفضهم وتشي بهم.

وتركز الدراسة على تيمة الوطن (الكويت)؛ لأنه الظاهر في رواية (خرائط التيه)، إذ يتجلى ظهوره في صورة الغلاف، وهي صورة تحمل خارطة المملكة العربية السعودية وحدودها، فتظهر الكويت في مساحة بيضاء هي و(جازان)، على الغلاف. ويبدو ذلك كدلالة على ذاكرة الطفل المخطوف، الذي يحتفظ في ذاكرته بالأحداث التي وقعت في مكانين فقط؛ هما الوطن الذي جمعه بأسرته، وجازان التي يعيش أيامه البائسة فيها، بينما يكون واقعًا تحت تأثير المنوم منذ اختطافه من الحرم وحتى وصوله إلى عسير، وفي عسير لا يعرف إلا غرفة الأطفال والحمام فقط.

وتكتسب الشخصية أهميتها من خلال تفاعلها مع المكان (الوطن)، وهو المكان الهاجس، الذي يمثل رمزية الانتماء ويحدد ملامح الهوية، وتظهر لدى الروائيين في صور عدة تجسد الأمكنة التي تحمل دلالات مختلفة، وفي رواية (خرائط التيه) يتمثل الوطن في صورة الأشخاص الذين يمدون يد العون لـ(فيصل) في أزمته، التي تأتي في صورة اتصالات إنقاذ؛ ففي حين يدرك فيصل أنه لن يتجاوز الأزمة وحده، يتصل بأخيه: «الشخص الوحيد الذي خطر بباله، الشخص الوحيد الممكن. ما إن أتاه صوت شقيقه حتى فقد قوته جميعها» (العيسى، 2015، ص. 24)، فعلى الرغم من تماسكه وادعائه القوة؛ فإنه يفقدها حين يسمع صوت أخيه قادمًا من أرض الوطن؛ الملاذ الوحيد للإنسان، ويقابل هذا اللجوء الرفض المقابل حين يبدأ أقاربه من الكويت بالاتصال به، حيث يرفض التجاوب والرد على اتصالاتهم عليه؛ إذ يقرر أن الرد لن

يكون إلا على رقم سعودي مجهول (العيسى، 2015). ولكن الوطن يبقى عونًا له في مواجهته للعنف؛ إذ يسخر أبناءه للبحث عن الطفل المخطوف: «رفاقه في الكويت تولوا إدارة الموضوع على الإنترنت. اتصالات تجري على قدم وساق مع السفارة في الرياض. متطوعون من حملات كويتية وغير كويتية يشكلون فرق بحث عن الصبي» (العيسى، 2015، ص.39).

وتلعب الهوية الوطنية رمزًا مميزًا للطفل المخطوف، وباعثًا للتعاطف والبحث عنه: «ينتظران أن يجري موظف الاستقبال جميع الاتصالات الممكنة للبحث عن طفل كويتي عمره سبع سنوات» (العيسى، 2015، ص. 28). إذ تمثل هذه الهوية مصدر قوة وانتماء مشترك بين (الكويت–السعودية) كما تحفِّز أصدقاء (فيصل) للمشاركة في البحث عن (مشاري).

وثمة مفارقة يحملها خروج الطفل من الوطن للحج في هذا العمر؛ حيث يدرك والده أنه دفع ابنه للخطر دون أن يدرك: «هل أخطأنا يوم أحضرناه معنا؟ هل أخطأنا؟ خاطري مشاري يشوف الكعبة! قالت سمية، لم يشأ ألا يطيب خاطرها؛ هل طاب» (العيسى، 2015، ص.35)، إذ إن هذا المكان الذي يقصده البالغون للبحث عن الأمان الروحي؛ يصبح مصدر خوف ورعب على الأطفال في ازدحامه لاكتظاظه بالبشر.

وتمثل الهوية الكويتية لدى الخاطفة مصدر ثروة: «هذا طفل سعودي! لا، إنه كويتي» (العيسى، 2015، ص.52)، تغري بالاحتفاظ به ومساومة ذويه، في حين تستمر هذه الهوية في بعث الدعم النفسي والاجتماعي لذوي المخطوف؛ حيث تصبح الهوية الوطنية قيدًا يرتبط بهذه الشخصيات وانطلاقًا للاستجابة في كافة الأحداث.

ويشترك الخاطفون مع المخطوف وذويه في أن الأحداث التي جمعتهم تجري في عدة أماكن خارج أوطانهم؛ إذ تتنقل الشخصيات من مكان إلى آخر، مع تطور حدث الاختطاف الذي يجعل المشاعر المضطربة تتحكم في الاستجابة. ولكن يظل وطن المخطوف (الكويت) قوة تسانده وذويه في أزمتهم، ولا تتخلى عنهم؛ في حين لا يعرف الخاطفون وطنًا يحميهم، أو يستمدون منه قوتهم؛ فكل الأماكن مجرد مناطق عبور واختباء؛ إذ تنهض فكرة الوطن لديهم على جدار من الصراع الاجتماعي

والسياسي والديني، الذي يمتد ويكبر كلما امتد حدث الاختطاف وتطور بأحداثه وشخصياته؛ فلا يتبقى من صورة الوطن في ذاكرة الخاطفين إلا صورة الخيمة؛ التي تمثل ظل البيت، والموت الذي يسطع في ذاكرة روينا كلما شاهدت اللون الأحمر؛ حيث لا تعرف لها أمًّا ولا أهلًا سوى تلك الخيمة في مخيمات ليتشور، والمرأة التي تدعوها «خالة» ماتت وهي تقذف الدم من أحشائها» (العيسى، 2015، ص.115).

(2) مكة: الخوف والذهول (الهذيان - الهستيريا) أثر أول للعنف

يقع حدث الاختطاف (العنف) في مكة؛ فكل شخصية من الشخصيات قدمت إلى مكة تحقيقًا لهدف معين؛ فـ (فيصل) و(سمية) قدما لأداء فريضة الحج يصطحبان ولدهما (مشاري)، فيما جاءت (ردينا) بهدف اختطاف الأطفال؛ وترحيلهم للاتِّجار في أجسادهم؛ ومن ثم فإن هذا الحدث يترك أثرًا نفسيًّا على كل شخصية من هذه الشخصيات؛ ويغيب هذا الأثر عن (مشاري) الطفل المخطوف في مكة «سوف آخذك إلى البوابة، العسكر سيساعدونك. أمسك بيد المرأة وسارا معًا. الكعبة من ورائه والمخرج من أمامه. لا يذكر شيئًا بعدها. استيقظ ليرى الخوف، ويتنشق الصراخ ويسمع الظلام» (العيسى، 2015، ص.55)، فهو الوحيد الذي لا ينعكس أثر المكان (مكة) على نفسه؛ لأنه غائب عن الوعي إبان إقامته في مكة مختطفًا.

تمثل مكة المكان الأول في الرواية؛ وهي محطة انتقال من الوطن السياسي إلى الوطن الديني الروحي، وهي أيضًا المكان الأول الذي تبدأ فيه رحلة العنف بالاختطاف، ويقع أثرها النفسي على (فيصل) و(سمية) أولًا بشكل متماثل، ثم لا يلبث أن يصبح لكل منهما حالة نفسية مختلفة؛ إذ تحتضن مكة تحولات الشعور النفسية المتشابهة في بدء الأزمة، حيث يستشعر والدا (مشاري) الخطر القادم وهما في الطواف: «صار مشيهما أبطأ مع اقترابهما من الركن اليماني، احتقن المكان. عندما وطأت بقدميها الحافيتين على الخط الرخامي البني، رفعت يمناها صوب الكعبة المتربعة في صدر العالم: **الله** أكبر. كانت تمسكه بيسراها» (العيسى، 2015، ص.16)، وهو شعور خفي أوحى لـ (سمية) بالاتجاه الجغرافي الذي سيمثل حالة الانتقال من الأمن إلى الخوف؛ حيث يتحد إحساسهما في البدء بالوعي والإدراك بأن

مكة هي أمل الوصول إلى (مشاري)، وكلما ابتعدت عن مركزها زاد الخوف والتمزق: «شعر فيصل بأن عليه أن يفعل ما هو أكثر من هذا الركض الملتاع. الأجساد التي يموج بها العالم؛ بياض، سواد، أمواج تتعاقب في حلقة مركزها الكعبة وهامشها خوفه، الدائرة تدور إلى الأبد» (العيسى، 2015، ص.16).

ويشمل هذا الإحساس المشترك الوعي الدقيق بالأماكن والزمان: «سارا صامتين، باتجاه بوابة الملك فهد. كان الظلام قد خيم على المكان. رفع فيصل عينيه ورأى رحيل آخر خيوط الضوء. الشمس غابت، ومشاري أيضًا غائب» (العيسى، 2015، ص.23)، «سار الاثنان بمحاذاة الأبراج، وساعة البرج تشع خضراء، تشير إلى السادسة والخمسين دقيقة» (العيسى، 2015، ص.25)، وهذه الحالة تؤكد ارتباط الإدراكين النفسي والحسي بالأزمة النفسية التي تمر بها الشخصيات؛ إذ يرتبط الزمان «بالإدراك النفسي، ويرتبط المكان بالإدراك الحسي؛ وحين يتفاعل الإدراكان تتشكل مأساة الذات وصراعها مع الواقع» (موسى، 2012، ص.112).

ويزداد استغراق (سمية) في الحرم؛ إذ تراه الأفق الأرحب، والمكان الذي لا تقوى على الخروج منه إلا بمساعدة فيصل: «كابد الاثنان أمواجًا من الحجاج وهما يغادران الحرم... سمية تريد العبور. ينظرون إليها مندهشين؛ العبور إلى أين؟ على ماذا؟ لم تعد هناك أرض للمشي. شدها فيصل من يدها محاولًا النفاذ بها خارج الزحام» (العيسى، 2015، ص.25)؛ لذلك فإنها ترافقه خارج حدود الحرم؛ حيث تهبط معه إلى مدخل أسواق أبراج الصفوة، ومستشفى أجياد لحالات الطوارئ. وبينما تظل سمية تدور في محيط الحرم، وتصر أن مشاري لم يغادر الحدود المقدسة، يقود الخوف فيصل إلى البحث خارج الحرم: «أنا مو مرتاحة فيصل، أخاف إنه ليلحين في الحرم. إذا ليلحين في الحرم وينه ما اتصل؟ طيب أنا أدوره في الحرم، وإنت دوره في المستشفى» (العيسى، 2015، ص.31).

ويبدأ الافتراق بين (فيصل) و(سمية) حينما يشرعان في البحث الموسع عن (مشاري)؛ إذ يقود الإدراك (فيصل) إلى البحث خارج نطاق المكان –مكة– فيما تظل (سمية) تبحث في الدائرة نفسها:

في تلك الأثناء كانت سمية قد أتمت طواف سبعة عشر شوطًا، وبدأت تشعر بأن ساقيها ستنفصلان عن جسدها وتواصلان الطواف إلى الأبد. سمية تمشي في دوائر سرمدية تبحث عن مشاري الذي ذاب في الزحام. تأمل أن تعثر عليه في المكان الذي فقدته فيه؛ أن تجده يطوف بوفاء حول النقطة ذاتها. (العيسى، 2015، ص.19).

وتسيطر حالتان نفسيتان على والدي (مشاري) إبان طريق البحث عنه؛ هما:

1 –الخوف الذي يمثله (فيصل).

2 – الذهول والهذيان الذي تمثله (سمية)، وتوصف حالة الهذيان؛ بأنها:

خلل شامل في الشخصية، يجعل سلوكها العام مضطربًا، ويعوق نشاطها الاجتماعي؛ مما يؤدي إلى زعزعة كيانها وفقدانها اتزانها وتكاملها نتيجةَ أسباب، منها: الصراعات النفسية، والإحباطات، والتوترات النفسية الشديدة، وانهيار وسائل الدفاع النفسي لدى الشخصية أمام هذه الصراعات والتوترات، ومشكلات انفعالية في الطفولة، وصدمات نفسية مبكرة، واضطرابات اجتماعية، وانعدام الشعور بالأمان والرفض (البنا، 2006، ص.40).

فيما يصف فرويد (الهستيريا) المشتقة من اللفظ اللاتيني للرحم (هستيرون)؛ لأن الفكرة الشائعة في ذلك الوقت أنها مرض يصيب النساء فقط: «بأنها مرض نفسي، ونزاع بين حالات وجدانية» (فرويد، 1981، ص.30). وذهب إلى أن (الهستيريا) تتولد شأنها شأن (الأحلام، وأحلام اليقظة) نتيجة "إخفاء الرغبات المكبوتة، وأن مصدرها يكمن في الحياة النفسية» (فرويد، 1981، ص.13)، وعليه يختار كل منهما (سمية – فيصل) مكانًا ونطاقًا جغرافيًّا مختلفًا عن الآخر للبحث.

يقود الخوف (فيصل) إلى الشعور الدقيق بأهمية الزمان وتحديد المكان منذ لحظات الاختطاف الأولى؛ حيث يشعر أن الزمن يسير في صالح المختطفين: «رفع ناظريه إلى السماء، برج الساعة نابت في المكان، مثل سارية. الثامنة وسبع وأربعون دقيقة. أصبح واضحًا بالنسبة له أن الزمن في صف الخاطفين.» (العيسى، 2015، ص.110). وإذ يدرك تقدمهم عليه؛ فإنه يتنقل بشكل سريع إلى أماكن عدة في وقت

قصير بين ثلاجة المستشفى «أحس فيصل بالبرد يخترق مسامه، نافذًا إلى قلبه، وهو يدلف إلى ثلاجة الموتى؛ ثلاجة معدنية لها جوارير» (العيسى، 2015، ص.33)، ثم العودة إلى الحرم:

أبيك تروح غرفة عمليات أمن الحرم. غرفة عمليات؟ أردف الرجل: إيه غرفة عمليات أمن الحرم! الجماعة ناطرينك... بلغناهم إنك جاي. الحرم فيه أكثر من سبعمية كاميرا مراقبة، وأكثر من ثلاثين شاشة رصد. أكيد راح تعرف شي عن ولدك. كل المطلوب تعطيهم آخر مكان كان فيه، والساعة والدقيقة بالضبط. (العيسى، 2015، ص.40).

يتخلى المكان عن دلالته المقدسة عند (فيصل)؛ حين يتأكد أنه لن يجد ابنه في مكة؛ وأن هذه المدينة رفعت عنه وعن ابنه حمايتها الروحية؛ مما يؤكد له أن (مشاري) خارج حدودها:

إنك تبحث في المكان الخطأ وأنت تعرف ذلك. تنظر حولك، أنت في ساحة الحرم، أمام بوابة الملك عبد العزيز، والرخام الأبيض يمتد أمامك مثل حلم حليبي. الشمس تسطع في السماء وفي الأرض، على بعد خطوتين منك، حمامة تلتقط حبة شعير. تزفر تشعر بأن حجب القداسة قد تمزقت جميعها، وتكشف لك الوجه الآخر، العاجز الكسيح لمكة، لمدينة عاجزة عن الحراك. لن ينقذك أحد. ابنك مختطف منذ أربع وعشرين ساعة، ولكن لا معنى لذلك في ظل وجود ثلاثة ملايين حاج. موسم العبادات؛ نور عليهم ونار عليك (العيسى، 2015، ص.84).

تتأكد قناعة (فيصل) بأن مكة لم تعد بتلك القداسة؛ وأن ابنه لم يعد في محيطها حينما تتجلى في باصرته وبصيرته صورة السواد التي يراها يوم عرفة ممتدة على أرجاء الحرم، وهي اللحظة الحاسمة التي يفارقه فيها شعور الأمان؛ فيقرر فيها البحث عن ابنه خارج حدودها:

فيصل يتمتم: اليوم عرفة؟ نظر حوله. ساحة الحرم خالية من الحجاج، وقد امتلأت حتى أطرافها بالنساء، عباءات سود تتعاقب شبرًا بعد آخر. ما الذي يحدث

هنا؟ إنه تقليد مكي. يشرح له مازن. في يوم عرفة يذهب الرجال إلى الحج والعمل، وتذهب النساء إلى الحرم. مسح بعينيه جحافل السواد التي تسيدت المكان، باحثًا عن خمار المرأة التي... (العيسى، 2015، ص.108).

يسيطر الخوف على (فيصل)؛ فيما يسيطر الذهول على (سمية)؛ التي تتوثق علاقتها الروحية بربها؛ حيث تسأله أن يلهمها مكان ابنها، وترى أن إكمال الحج سيصلها بابنها، وتصاب (سمية) بحالة من الهذيان تقارب الجنون؛ يجعلها تتقرب إلى الله بالطاعات في اعتقاد منها أن مصابها كان بسبب ذنوبها؛ وتؤكد على رغبتها في التوبة من ذنوبها التي ليست متأكدة من أنها اقترفتها، إذ تعيش ذاتها الإنسانية غربة حادة مع الجماعة التي تعيش معها، فهي في خصومة دائمة معها (فوكو، 2008)، ومع ذلك فهي تعود لتتشبث بالله «أن يدلها على المكان الذي ينتظرها فيه، وينتهي كل هذا الرعب» (العيسى، 2015، ص.19)، ثم تعود إلى حالة الضياع في مفارقة بين المكان الآمن والضياع: «هل سيضيع ولدي في بيتك يا الله؟!» (العيسى، 2015، ص.20).

يفسر سلوك (سمية) وشتات مشاعرها وأحاسيسها وهواجسها –التي لا تتسق وحال أم تفقد ابنها– الذهول الذهني، الذي تزامن وصدمتها الشعورية، إذ تعود إلى توسلها وابتهالها ومناجاتها لله، فهي تنتظر تقبُّل الله لأعمالها الذي يظهر في عودة ابنها، فيما يستشعر فيصل في هذا الضياع الخذلان، وهو ما يزيد تأزمه وبحثه المتسارع، بينما تتيقن سمية من عودة ابنها مما يجعلها تبقى في مكة، ثم يقودها اليقين إلى عسير حيث تجد خاطفة ابنها؛ إن هذا اليقين يؤكد أن المكان «خزان حقيقي للأفكار والمشاعر والحدوس، حيث تنشأ بين الشخصية والمكان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر، وبشكل يظهر فيه المكان معبرًا عن نفسية الشخصية، ومنسجمًا مع رؤيتها للكون والحياة، وحاملًا لبعض الأفكار» (بحراوي، 1990، ص.31)؛ الأمر الذي يجعلها في حالة تردد بين الحرم وعرفة ومزدلفة في الفترة التي يقضيها مشاري بين مكة وعسير (العيسى، 2015).

ويوازي الحدس الذهني الحدث السلوكي؛ حيث يتقارب الأثر النفسي والسلوك الذي تمارسه (سمية)، والحال التي يصير إليها (مشاري)، إذ توظف الحالات النفسية والذهنية مع الحدث الرئيس.

تشعر (سمية) وهي تكمل طقوسها الدينية التي ستمنع وقوع الخطر المتوقع المخيف، وتدفعه عن ابنها أن «الأرض تصعد. هكذا فكرت سمية وهي تنظر إلى الجبل؛ الأرض تصعد إلى أعلى، إلى جبل الرحمة أنا أيضًا سوف أصعد» (العيسى، 2015، ص.161)، ثم لا تلبث أن «لا تعرف سمية ماذا حدث لها فوق الجبل، ولكنها عندما نزلت إلى الأرض عرفت بأنها لن تعود الشخص نفسه أبدًا» (العيسى، 2015، ص.170)، هكذا تتلاءم الصياغة السردية مع حالة الهذيان العقلي بما يشبه حالة ضياع المختطف.

تزيد ممارساتُها الدينية في هذا التوقيت تحديدًا من عزلتها الداخلية؛ فهي تشعر بأنها وحيدة وأن فيصل لا يفهمها، فهي تؤمن بأن العلاقة مع **الله** كفيلة بإعادة ابنها، فعلى الرغم من الرعب الذي تعيشه من وقع الاختطاف فهي تكمل مناسك حجها، وهي في حالة خوف من الناس، واستغراب متبادل بينها وبين (فيصل)؛ كلٌّ يستنكر سلوك الآخر:

– إنتي وين؟

– في مزدلفة.

– في مزدلفة؟ اتسعت حدقتاه. هل تؤدي المشاعر؟ شعر بأنه لا يفهم. كيف تفقد ولدها ثم تواصل حجتها وكأن شيئًا لم يحدث.

– شتسوين في مزدلفة؟

– أدور.

– من قال إنه في مزدلفة؟ زفرت، كأنها تتبرم من سؤاله. على أي أساس؟!

– ولا أساس، إحساس بس... إحساس؟ هز رأسه غير مصدق، إحساسها أخذها إلى الحرم وأبقاه في المستشفى! إحساسها يأخذها الآن إلى مزدلفة رغم أن الصغير

فـي الجنـوب؛ فـي عسيـر أو جـازان، أو... مـن يـدري ربمـا كـان فـي اليمـن (العيسى، 2015، ص.218).

لقد خلقت مفارقة المكان والحدث العنيف صياغة سردية ذهنية للشخصية، ساهمت في فاعلية الحدث؛ حيث انعكس أثر المكان في بُعدين؛ الأول: الشعور الديني الذي تعيشه (سمية)، وتجسيدها المشاعر الدينية والروحية على الرغم من تغير حالاتها وما تواجهه من اضطراب وتأزم الشخصية والأفكار الواعية واللاواعية؛ إذ ظهرت القوة الدينية للمكان بشكل جلي واضح في شخصية (سمية). والآخر: شعور الخوف الطبيعي والذهول بوصفه فعلًا يتناسب والحدث في مكان بهذا الحجم من الازدحام والتعدد البشري، إلى جانب قدسيته التي تحاصر أفكارها وتصوراتها وتحكم سلوكها.

لقد نسجت الرواية العوالم الداخلية النفسية والذهنية المضطربة التي تكونت في ذات (سمية) في المكان (مكة) بفعل الحدث؛ وهي تقود إلى جملة من التساؤلات الذهنية المقلقة، التي تجعلها في حالة اضطراب بين يقينها الروحي، وإدراكها الواقعي؛ الأمر الذي يزيد من أزمتها.

ويتجلى الأثر النفسي على الطرف الثالث في حادثة الاختطاف، وهي (روينا)؛ إذ تصف أثر الحدث عليها، وهي لم تغادر بعدُ المكان (مكة): «غادرت روينا شارع المنصور، سارت عميقًا في الأزقة، توغلت في الشرايين الهزيلة المنتشرة في جسد مكة، ثم صار المشي أصعب عندما أخذت الأرض أسفل قدميها تصعد إلى الجبال» (العيسى، 2015، ص.48)، لقد منحها اختطاف (مشاري) شعورًا بالانتصار والظفر، وقد وجدت سبيلًا جديدًا للتكسب من خلال طفل من جنسية أخرى جعلت خطواتها تتسارع فرحًا، فلا تشعر بالمسافة وصعوبة صعود الجبال.

تجلت لها المفارقة في ذات المكان؛ مكة، واختلاف طرق التكسب، والعنف ضد الأطفال قبل عشر سنوات، وما تفعله اليوم. رفعت عينيها إلى قمة الجبل حيث ينتظرها البقية. كانت الشمس شبه العمودية تلهب ظهرها. ابتسمت وهي تتذكر نفسها قبل عشر سنوات، كانت تأخذ الأطفال من المخيمات في شمال إثيوبيا لتهريبهم إلى

مكة وإطلاقهم للتسول... ابتسمت وهي الآن تفعل العكس. تجلب الأطفال من مكة، وتهربهم عبر الجنوب (العيسى، 2015، ص.49).

لقد منحتها المعرفة القوية بالمكان فرصة خلق خارطة منظمة للعنف، ترسم بدايتها من الحرم وتنتهي خارج القارة إلى حيث تباع أعضاء الأطفال وتلقى جثثهم في مقابر جماعية. ويضاف إلى هذه المعرفة التي تخلقت لديها بالممارسة أن مكة مكان مقدس ينبذ العنف ويقصيه ويقذفه بعيدًا؛ مما يجعل الطريق لطردها وأمثالها سالكًا، «دقائق وأغلق الخط، عاقدًا حاجبيه. كان يحبس في داخله كلامًا كثيرًا، دس الهاتف في جيبه وركب في المقعد الأمامي، شغل السيارة فتعالى في الفضاء هدير المحرك. ما معنى هذا؟ اصعدن بسرعة. أين سنذهب؟ ابتسمت روينا: إلى عسير» (العيسى، 2015، ص.53)، لقد تيقنت (روينا) ومن خلال تجاربها السابقة أن جريمة الاختطاف لا يمكن أن تكتمل بنتائج إيجابية وتحقق أرباحها في مكة؛ «فالسماء معتمة؛ لكن مكة مضيئة ومشرعة العينين، مستيقظة إلى الأبد» (العيسى، 2015، ص.98)، وهذا ما يحيل على الدلالة اللغوية لمفردة مكة؛ وهي عتبة أولى تفسر هروب روينا من مكة، التي تعني دلالتها اللغوية الهلاك (ابن منظور، 1994)؛ لمن أراد بها أو بأهلها وقاصديها شرًّا.

(ب) العنف بين ذاكرتي المكان والوطن

1 - عسير : مخطط العبور

تختلف طبيعة الأمكنة في الرواية وتفاصيلها وأبعادها؛ وهي اختلافات عاكسة لأبعاد الشخصيات فيها؛ ففي (خرائط التيه) تتسع الأمكنة على ضيقها للخاطفين فتسهل لهم عملية الاختطاف، وتضيق على اتساعها على الضحايا؛ ففي مكة حيث الازدحام البشري المتنوع يجد الخاطفون طريقهم سالكًا للخروج بالضحية، وفي عسير على وعورة المنطقة واختلاف طبيعتها تصبح خارطة مقروءة لخططهم، وفي جميع تلك التفاصيل فإنها تحمل بعدًا كئيبًا على الضحية وذويه.

حتمت الطبيعة المكشوفة والمراقبة في محيط الحرم على الخاطفين أن يخرجوا

بالمخطوف خارج إطارها، وقد صورت الرواية الجزء المعنوي من أثر الاختطاف على أطراف الجريمة في هذه المدينة، الذي وقع أثره على ذوي الخاطفين والخاطفة، فيما تبدأ تفاصيل العنف الجسدي تتشكل في عسير مع التخطيط للتعامل مع الضحايا، التي بدأت فعليًّا مع (مريم)؛ حيث تسيل دماؤها من جراء الاعتداء الجسدي الذي تتعرض له من (جرجس)، وتظل تنزف حتى الموت بعد أن تمزقت أعضاؤها. ولأن الاعتداء الجسدي له أبعاد مختلفة ونتائج فادحة، فلا بد أن يتم في منطقة معروفة التفاصيل محفوفة بالأمان للخاطفين، وهو الأمر الذي يظهر من خلال الوصف الدقيق لأماكن العبور من مكة وحتى الوصول إلى بيت الخاطفين في عسير، والمعرفة الدقيقة بالأماكن والطرق الوعرة والسالكة، والموارية والمخفية:

قبل نقطة التفتيش، انعطف عثمان يمينًا، إلى طريق ترابي وعر. سار مسافة كافية، ثم عاد إلى الشارع الرئيسي بعد أن ابتعد عن دورية الشرطة بما يكفي. حدث ذلك عدة مرات أثناء الرحلة. كلما أوشكوا على الاقتراب من نقطة أمنية، أو اختناق مروري، كان يلج تك الطرق السرية التي يعرفها جيدًا؛ شعاب مكة الخبيئة، قنوات التهريب التي يعرفها مثل باطن يده. كانت طرق التهريب تغص بالمتسللين، حجاج لا يملكون تصاريح للحج، يدلفون مكة من أضيق شعابها (العيسى، 2015، ص.57).

وهذا الوصف يتسق مع التسمية التي هي أولى العتبات الشخصية المكانية التي تحمل دلالات لا تتكرر، إذ يشي عنوان رواية (خرائط التيه) إلى تعدد الأمكنة المؤدية إلى الضياع والتيه؛ نظرًا لأنها مبهمة وغامضة، لا يعرفها إلا الخاطفون؛ وهذا يعني أن الرواية اتجهت إلى «استثمار المكان كمكون من مكونات الفضاء الروائي؛ لتصبح تلك البنية عتبة من عتبات النص الروائي، التي لها طابع الازدواج في تداخلاتها» (العدواني، 2002، ص.23)، ونظرًا لأهمية المكان في هذه الرواية كان استهلال العنوان مستندًا إلى المكان؛ مما جعله نصًّا تأسيسيًّا تقوم عليه أحداث الرواية. وتكشف التفاصيل الأدق عن معرفة الخاطفين بالمكان، وليس الاندماج والانسجام معه، فالمعرفة مبنية على المصالح والمكاسب غير الشرعية، تظهر تلك التفاصيل في وصف البيت الذي يسكنه الخاطفون:

انتشلت روينا الصبي من بين أذرع وسيقان الطفلتين، حملته على كتفها وسارت به إلى البيت، بيت حجري من طابقين، يشبه هرمًا ناقصًا، بجدرانه التي تضيق كلما علت في السماء، ناتئًا في فراغ الوادي يلفه الليل. كان للبيت باب مطلي بالقطران، نوافذ صغيرة مرتفعة، وجدران داخلية مزدانة بنقوش ملونة؛ خضراء وحمراء وسوداء. كانت الدرجات مطلية بالأخضر (العيسى، 2015، ص.62).

لا يكفي الزمن الطويل الذي قضاه الخاطفون في عسير، أو المنافع التي حققوها في بناء علاقة ود وانتماء مع المكان؛ إذ يظل نداء الوطن والحنين إليه هاجسًا ومؤرقًا مهما كانت سوءات ذلك الوطن.

فتحت باب البيت وجلست على الدكة، تتأمل شروق الشمس. رأت القفر مترامياً أمامها وجبال عسير المهيبة تطبق المشهد، كأنها تعصر قلبها وتستخرج ماءه. غابات العرعر، أشجار السدر، الطلح، السرو، العتم... حساسين، عصافير دوري. أغمضت عينيها فتملأ صدرها بتفاصيل مغايرة؛ طريق الحصى الأبيض الممتد بين خيام مأهولة بالجائعين السود، بخدود غائرة وعظام ناتئة. ولأول مرة، منذ سنوات طويلة جدًّا، شعرت بأنها تحن إلى خيمتها الصغيرة في ليتشور، إلى براءتها المكسورة على نحو لا يمكن إصلاحه (العيسى، 2015، ص.119).

يحدد هذا المقطع الاستذكاري المفارقات الواسعة بين وطن (روينا) وعسير؛ المكان الذي اتخذته منطقة عبور واستقرار آمنة لجرائمها المشتركة مع العصابة، ومع ذلك فهي تحن إلى الوطن الذي لم يمنحها إلا خيمة لجوء، فيما تتنكر لهذا المكان الذي منحها وجودًا وسلطة وأمانًا، حين قررت الخروج من تلك الخيمة. ولئن تركّز وصف (روينا) على البيت الذي تسكنه في عسير، وفي أعماقها تتمنى مكانًا موازيًا –خيمة– في وطنها؛ ذلك لأن البيت وطن المرأة الأول، وفي المقابل فإن (عثمان) يصف تفاصيل المكان من بُعدٍ معرفيٍّ آخر؛ حيث يمثل مصدر الرزق والعمل الذي يمتهنه:

فكِّر بالأمر، طفل واحد سعودي مثلًا، تخفيه في أحد الكهوف الكثيرة هنا، تتصل بأهله وتطلب فدية، يعطونك المال لتدلهم على مكانه بعد أن تعبر الحدود إلى اليمن من وادي الجنية أو وادي دفا، إنها خطة سهلة. هز رأسه: وماذا عن الأطفال السود؟

هل نذهب إلى اليمن ومعنا اثنا عشر طفلًا مطلوب إيصالهم إلى سيناء؟ صمتت لثوانٍ تفكر؛ إذن لست مضطرًا لإنجاز الأمر هنا، يمكننا أن نعبر البحر. قطَّب جبينه. رفت كتفيها؛ تقول وهو ما نفعله طوال الوقت على أية حال، أليس كذلك؟ سنتفاوض معهم إذا وصلنا سيناء، أو نبيعه على الرعايدة (العيسى، 2015، ص.73).

ويصاغ المكان وينحت عند (عثمان) من منطلق جاذبيته له، ومعرفته الوثيقة به، فكل شخصية تصف المكان بحسب حالها ودورها وثقافتها. كان يعرف هذه الجبال كما يعرف جسده، ويخيل إليه أحيانًا بأنه يحبها. يعرف عثمان أين تسيل المياه الجارية، وأين يكثر السدر، وأشجار السرو والعرعر، وأين يمكنه أن يحصل على العسل الطبيعي، وأين يقع السد الزراعي. يعرف الطريق إلى أوكار الشمة والعرق، وعشوائيات الخشب، وبيوت الصفيح، ومزارع اللوز. ويعرف بأنه إذا صعد هذه القمة، فلسوف يعثر على جماعات تزوده بأسلحة، هواتف نقالة، قارب نفخ سوزوكي، وجيب لاند كروزر بدفع رباعي، يسع سبعة أطفال مقيدي الأقدام، وأربعة بالغين، حقيبة إسعافات أولية، معلبات غذائية، صرة ثياب، وكثيرًا من جرار العسل. جاء عثمان إلى عسير قبل خمس سنوات. عبر الحدود اليمينة، سيرًا على قدميه، عطشًا وهاربًا من جغرافيا الجوع الأسود، مع سبعة آخرين؛ يمنيون وإثيوبيون وإرتريون... (العيسى، 2015، ص.129).

لقد استطاعت العيسى أن توظف المكان المخترق من قبل الخاطفين، الذين يقيمون فيه بطريقة غير شرعية؛ إذ يظهر ذلك في إيرادها أسماء الأماكن وتفاصيلها، ليس حبًّا ولا احتفاءً، ولا رصدًا تاريخيًّا؛ إنما استكمالًا لصورة الشخصية الإجرامية المخترقة لقداسة المكان، في إطار حدث الاختطاف، فبغير هذه التفاصيل الدقيقة لن يصبح للحدث جدوى، إنها علاقة الأسرار الغامضة بين المكان والشخصيات؛ هكذا استطاع الخاطفون أن يسخروا المكان لقِيَمهم ويجعلوه محطةَ عبور وأمانٍ نفسي لأغراضهم الإجرامية.

وقد يحدث أن يقوم المكان برد فعل معاكس تجاه هؤلاء الخاطفين، فيقاوم وجودهم ويمارس رفضًا لقيمهم المنحرفة بطرق مختلفة؛ فقد كان قدوم (عثمان) وفق خطة محددة تغيرت بفعل تغير ظروف المكان: «قيل بأن عليه أن يذهب إلى وادي

الشيطان، وأنه بمجرد أن يصل سيجد سيارات متخصصي... سوف يأخذونه إلى جازان ثم عسير... استقر به الأمر في رجال ألمع...» (العيسى، 2015، ص.130). ويخلق شعور الشخصية تجاه المكان وسلوكه في إطاره، حيث تتضامن معه خبراته السابقة وإدراكه لأبعاده علاقة ثقة واطمئنان، ووفقًا لهذا يضع (عثمان) خطته في الهرب بالطفل الكويتي:

لا لن يذهب إلى اليمن، سوف يذهب إلى أسمرة وعلى متن قارب أمن وليس على قارب كوبية متهالكة. سوف تحرسه قوات أمن السواحل نفسها وتتأكد من وصوله، مع حقائبه الملأى بالدولارات المليون... سيكون قد خبَّأ الصبي في أحد الكهوف أو أحد الأودية المهجورة في عسير؛ وادي شوقب أو وادي فو... (العيسى، 2015، ص.138).

وتحمل أسماء الشخصيات والأمكنة بصمة البيئة ودلالتها عليها، فعسير اسم المنطقة يدل على طبيعة المنطقة الجبلية العصية، وهو ما كشفت عنه الأوصاف التي سردها (عثمان) عنها. أما أسماء الشخصيات الخاطفة، وهي: (عثمان – جرجس – روينا – بهاتي)؛ فإنها لا تنتمي إلى طبيعة المكان أي البيئة السعودية الجنوبية، لكنها تعكس المرجعية الدينية والعقائد المختلفة؛ إذ يكثر استخدام اسم عثمان في أفريقيا المسلمة، فيما يتسمى ببقية الأسماء الأفارقة اليهود والمسيحيون، فالأسماء إحدى الوسائل المتعارف عليها لتشكيل العلاقة بين المكان والشخصية، والكشف عن الطباع المشتركة بينهما، كما يلاحظ على هذه الأسماء إلى جانب هوياتها التي لا تنتمي إلى المكان، تجردها من الألقاب والإسناد إلى الآباء، وهي دلالة أخرى على التجرد من الانتماء، لا سيما وأن هذه صفة تنافي طباع البيئة الجنوبية التي تربط اسم الابن بالأب بالعائلة أو القبيلة دائمًا، كما أنها تتنافى مع الطبيعة الإنسانية التي تربط الأبناء بالآباء. و يلحظ افتقاد العلاقة بين تلك الشخصيات الخاطفة المتطفلة على المكان وبين العادات والتقاليد التي تضبط أحكام المكان، وهي جزء منه، ومظهر من مظاهر الانتماء، والتأثير المتبادل بين المكان والشخصية.

كذلك يختفي مؤشر اللهجات، وهو مظهر آخر من مظاهر الانتماء؛ إذ يظهر حوار الشخصيات فيما بينها في عسير في شكل لهجة أفريقية مكسرة ومقتضبة جدًّا، ويطغى الحوار الداخلي على هذا الجزء المكاني، وتخلو الرواية من الحوارات بين الشخصيات الخاطفة وأبناء المكان الحقيقيين.

لقد صور المكان –مكة وعسير وكما سيأتي في جازان– صراعًا بين ثقافتين متناقضتين ومختلفتين في القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية المحرضة على العنف بأشكاله المختلفة، ويظل المكان يقاومها وحيدًا حتى ينتصر في نبذها.

لقد لخص (فيصل) علاقة الخاطفين بالمكان في العالم ككل بقوله: «حدسك ينبئك بأن الخاطفين لا ينتمون إلى هذا العالم المدجن بالقانون والتكنولوجيا» (العيسى، 2015، ص.84)، وهي الحقيقة الفعلية لعلاقة الخاطفين بالعالم أجمع.

2 - جازان: صراع البقاء بين الأرض والفلاح

تتعدد صور المكان وتختلف طبيعته؛ حتى يصل حدث اختطاف (مشاري) إلى مزرعة في جازان، حيث يقع الحدث الأعنف –الاعتداء الجسدي– الذي يغير بوصلة الأحداث والشخصيات.

وتعد اللغة مظهرًا من مظاهر الجذب والانتماء والأمان؛ إذ تجذب رطانة (نظام شجاع الدين) الوافد الباكستاني الذي يعمل في مزرعة سيده بعد وفاته (مشاري) ويشعر معه بالألفة، حيث يجد (نظام) (مشاري) في جازان قريبًا من مزرعة سيده، فيأخذه معه إلى المزرعة؛ وتنساب الألفة إلى قلب (مشاري)؛ لأنها تذكره بآخر رطانة سمعها من (مريم) الضحية التي شاركته منتصف المصير في اختطاف العصابة له من مكة، ثم تعرضت لاعتداء جسدي وحشي، سيلقى (مشاري) مثله من (نظام)؛ كان يسمعها وهي في النزع الأخير تقول: «بيني بيني»، وهي أول كلمة سمعها هنا، ثم رأى: «سقفًا من الجبس الأبيض ومروحة لا تدور، قلَّب عينيه في المكان، رأى جهاز التلفزيون بابًا معدنيًّا... رأى على الجدار قصاصات صور أجساد عارية نساء... قال الرجل: بيني» (العيسى، 2015، ص.194)، فتبدو الرطانة، على الرغم من اختلافها

والجهل بمفهومها، عاملًا روحيًّا في بعث الألفة؛ لا يلبث أن يكشف عن النقيض؛ إذ إن عملية الانسجام وبناء العلاقة مع المكان تتضمن وعيًا تدريجيًّا، يتحقق نتيجة التعرف على مسببات الأمان فيه؛ لذا فإن ردة الفعل الأول التي أصدرها مشاري مع المكان لا تتسق مع ما سيلاقيه، إذ عبر تطور رؤيته للمكان، يتحول المكان من الألفة إلى العداء.

يحاول (نظام شجاع الدين) الخاطف الثاني لـ(مشاري) التماهي مع طبيعة الأرض والمكان في تقليد سيده في الممارسات التي كان يشاهده وهو يمارسها، وفي سعيه إلى هذا التماهي يتشبه بكثير من طباعه التي تظهر في الاسم المركب؛ فالاسم المركب يستخدم في شرق آسيا، ولكنه يبدو هنا صورة من صور التماهي التي تذكر باستخدام الاسم الثاني واللقب في البيئة الجنوبية؛ والتي تكشف عنها الكاتبة، وتحدد موقع الأحداث بدقة في مزرعة (الشيخ إبراهيم حجاب)، ومزرعة (الشيخ عيسى)؛ لكن هذا التماهي الشكلي لا يمنحه ذات الطباع والأخلاق.

يكتسب (شجاع نظام الدين) بعض طباع الأرض؛ إذ تمنحه ساعة بيولوجية توقظه كل صباح: «كل يوم في تمام الخامسة فجرًا يفتح عينيه. يوقظه جسده قبل أن ينطلق رنين المنبه بدقائق. حدث هذا لأول مرة قبل ثمانية أشهر عندما أَلِف إيقاعَ الأرض الجديدة ولم يكفَّ جسده عن إيقاظه منذها» (العيسى، 2015، ص.227). لقد استطاعت الأرض أن تضبط إيقاع (شجاع نظام الدين) الجسدي، وعلاقته بها فتعطيه بقدر إخلاصه لها.

لقد حاول هذا الوافد تجسيد عادات المجتمع الفلاحي، وتمثل تكوينه النفسي، والتماهي مع طرق تفكير سكانه، التي محورها الأرض، وأدوات الفلاحة، وأوقات المطر، ومواسم المحاصيل الزراعية:

التقط عصاه الخشبية وانطلق من فوره للعمل، غرس طرفها المدبب في الأرض، ثم صنع شقوقًا مستقيمة بطول الحقل ذهابًا وإيابًا. يفصل بين الخطوط المتوازية بثلاثة أشبار، ويحرص على ألا يتجاوز عمق الشقوق مسافة الذراع. التربة مهيأة

والأرض تستقبل الحرث قبولًا حسنًا. امتلأت الأرض بالخطوط المتوازية حتى لم يعد ثمة مكان لخط آخر. تحسس حبيبات التربة بأصابعه وشمها. إنها مستعدة لكي تحبل (العيسى، 2015، ص.228).

يفتقد (نظام شجاع الدين) اللغة الحوارية مع سكان هذه الأرض، فيستمر على رطانته، ويلتزم الصمت، وقد يستخدم لغة الإشارة، التي استخدمها سيده معه في تعليمه الزراعة: «كان الشيخ يدخل غرفته ويشاركه شرب الشاي بالنعناع، يخبره بأصابعه؛ غدًا أعلمك كيف تزرع الشمام. لا يفهم ما يقوله حينه ولكن حينما يجيء الغد ويرى البذور يعرف...» (العيسى، 2015، ص.240)، لكن سيده كان حريصًا على تعليمه الممارسات الحياتية الضرورية للحياة في جازان: «علَّمه العجوز كل ما يحتاج معرفته للعيش في جازان. زراعة الأعلاف والحبوب، الخضار والفواكه، العناية بالمواشي، وحتى الطبخ» (العيسى، 2015، ص.241).

وتمثل الأرض رمزًا للعرض والشرف؛ التي يحرص أبناؤها على الحفاظ عليها؛ بل إن الأكل يصبح عيبًا حين يأكله المزارع من غيرها. حدث ذلك في الحوار الوحيد الذي يجري على هذه الأرض بين الشيخ وأبنائه قبل موته:

أرادوا منه أن يترك الحقل وأن يأتي معهم إلى الرياض. قال العجوز إنه لا يستطيع أن يزرع الذرة في الرياض، ولا يستطيع رؤية الجبال هناك. قالوا له إن الذرة تباع في جميع المتاجر. ارتجفت قسمات الشيخ، قال إنه يكفيه من العار أن يغادر أولاده أرضهم وأن يتركوا سماءهم وأشجارهم، ولكنه لن يغادر الجنوب أبدًا؛ لقد عشت عمري هنا، وسوف أموت هنا (العيسى، 2015، ص.242).

وتتمثل المفارقة في أن ينتهك عرض (مشاري) على هذه الأرض؛ التي لا تلبث أن ترفض الجاني، وتبدد جهوده التي يبذلها لاستثمارها.

لقد منحت الأرض (نظام شجاع الدين) كل أسباب الحياة الأساسية التي يرغب فيها، لكنه، بمجرد انتهاكه لأعراف الحياة، واستباحته حرمة الطفل (مشاري) وبراءته، وتجرده من معاني الإنسانية تبدأ الأرض بتجريده من كل الخصائص التي

منحته إياها؛ يبدأ ذلك حينما يدخل (مشاري) في حياته، فيبدأ بتطويقه ومد سياج السجن على حريته وطفولته؛ حيث يظن أن هذا المنقذ سيكون وسيطًا للعودة إلى أهله، لكن محاولاته تبوء بالفشل الذي خطط له (نظام شجاع الدين):

نهض الصبي من مكانه وراح يجول في الغرفة، يبحث عن شيء ما. عثر على أوراق الرسائل وقلم الرصاص فوق الثلاجة. كتب رقمًا على الورقة وأعطاه إياه. كان الرقم يبدأ بـ 965 + وهذا يعني أنه ليس من الشمال ولا من الغرب ولا من الشرق، إنه من خارج الخريطة. بابا (العيسى، 2015، ص.247).

لقد خطط لسلب هذا الطفل براءته وانتهاك جسده وتكبيله بادعاء الجهل حتى لا يجد مشاري أملًا في الحياة إلا من خلاله: «إنها مسألة وقت حتى يدرك الصغير بأنه هو نظام شجاع الدين القادم من كراتشي؛ الشخص الوحيد الذي بقي له في هذا العالم» (العيسى، 2015، ص.253).

وتجسد مزرعة (الشيخ إبراهيم حجاب) في جازان مكانًا طاهرًا، ينبذ العنف؛ حيث ترفض الأرض بذور (نظام شجاع الدين)، وتهدر جهده وتصبح صورة أخرى للموت؛ وعليه يفقد تناغمه مع الأرض: «لم يعد جسده يوقظه، كأنه فقد التناغم بينه وبين الأرض» (العيسى، 2015، ص.289)؛ ومن ثم، فإنه لا يستطيع بث روح الحياة في الأرض التي يزرعها: «لم يعد يحس بملمس التربة بين أصابعه... لقد لعنني هذا الشيطان» (العيسى، 2015، ص.295)، حينها «أطبق الضيق على صدره، جلس عند حافة الحقل سابحًا في العرق يتأمل المكان، حاول أن يسترجع إحساسه بالحقل والجبال ورائحة الملح في الهواء. كأن حواسه انطفأت، والأرض لم تعد تكلمه» (العيسى، 2015، ص.295) عندما اكتشف أنه قطف ثمرة لم تنضج من المانجو:

صار يلهث أمام حقله ممتلئًا بالذعر؛ إذا كان عاجزًا عن تمييز الثمرة الناضجة من الحامضة فكيف سيحصد الدخن؟ كيف سيقطف السنابل؟ كيف سيحزم القصب؟ كيف سيجفف العرانيس؟ كيف سيصفي الحبوب؟ كيف سيقوم بأي شيء، كل شيء، وقد فقد هذا الشيء الذي يملكه؛ إحساسه (العيسى، 2015، ص.298).

هكذا تتحالف الأرض مع الطهر والسلام وتصبح مقاومًا للعنف بطريقتها.

يحتفظ (نظام شجاع الدين) بصورة الأرض حين منحته خيراتها وحين أجدبت؛ في حين لا يبقى في ذاكرة (مشاري) من الأماكن سوى الكهف، والغرفة المغلقة المليئة بصور النساء ولوحة الكعبة. (العيسى، 2015، ص.230).

تحمل دلالة المكان (جازان) دلالتين: الأولى ذات جانب إيجابي، والأخرى ذات جانب سلبي لذات الشخصية (نظام شجاع الدين)؛ وهو الشخصية الخارجة عن العصابة، لكنه يمارس فعلًا شنيعًا؛ يجعل الأرض تلفظه، كما لفظت أفراد العصابة السابقين. والفارق بينهما أن الأرض لم تمنح العصابة شيئًا منها، سوى تلك الكهوف التي اتخذوها مخابئ، فيما منحت (نظام شجاع الدين) جانبًا إيجابيًا في معرفة أسرارها.

لقد ردد (نظام شجاع الدين) التساؤلات الذهنية عن النتائج السلبية للأرض بينه وبين نفسه؛ لكن ظهور آثارها واقعيًّا يدل على أمرين؛ الأول: يدل على عملية الاختراق العميق التي قامت بها الأرض لأعماق (نظام شجاع الدين)، واكتشافها تلك الدواخل من مشاعر وأفكار وخفايا مكبوتة وغير معلنة من قبلهما بأي أسلوب لفظي، لكنها كانت تصاغ في صورة تقليد وممارسة عملية لما كان يمارسه سيده؛ مما أشعر الأرض أن صاحبها ما زال موجودًا، لكنَّ شعورًا في أعماقها اختلف فاختلفت الاستجابة. الثاني: يدل على قدرة الأرض على الاستقلال والعيش من دون فلاح؛ وإن كانت قد بدأت تنسجم معه في البداية بشكل يغلب عليه الترتيب والتنظيم المنطقي؛ لكن ذلك الترتيب اختلَّ حينما شعرت باختلال الشعور الأخلاقي بينهما.

وتمثل الأرض الزراعية حدي العطاء مجازاة بالوفاء، والمنع رفضًا للعنف الذي حدث لـ (مشاري) في هيئة إضاعة محصول العام على (نظام شجاع الدين)، كما أن انتفاء اللغة الحوارية بين (نظام شجاع الدين) ومن حوله هو معنى من معاني النبذ المؤكد من المكان، وهي صورة تشابه حال العصابة، لن تتقن لغة المكان على الرغم من طول مكثها فيه، لكن اللغة هي جزء من روح المكان فلا تمنح إلا لمن يستحقها.

لقد شكَّلت ممارسات (نظام شجاع الدين) وسلوكياته اختلافًا عما يمثله العالم والمكان؛ لذا يلمح عدم الانسجام بين السلوك والمكان والممارسات التي تعلمها في المكان، وهو بسلوكياته هذه يرسم مصيره، يشكل هذا السلوك العنيف المتنافي مع الأخلاق ذات (نظام شجاع الدين)، ويخرجه من حيز المكان، ويقصيه من الانتماء للمكان؛ مما يكشف عن بنيتين إنسانيتين أخلاقيتين، لا مجال لقبول أحدهما للآخر، وينفي هذا المعنى ما استقر عليه النقاد من أن: المكان يكوِّن الخصائص والسمات الشخصية الإنسانية؛ فيما يتعلق بالعادات السلوكية والتكوين النفسي، وذلك ما يؤكده ما حدث مع شخصيات العصابة، و(نظام شجاع الدين).

ظهر الكهف، آخر الأماكن في جازان، بصفته صورة أخيرة متعمدة للموت كما أرادها (نظام شجاع الدين) لمشاري؛ لكن المفارقة تمثلت في أن كان ذلك الكهف سببًا لعودة الحياة له: «وصلا إلى الكهف... وصار قادرًا على رؤية المكان... قال له: هذه وطاويط تأكل العسل والفاكهة، دماؤك لن تستهويها، ولكنني متأكد من وجود ذئاب في مكان كهذا، لقد سمعت طوال سنوات عويلها آتيًا من بعيد» (العيسى، 2015، ص.365).

تجلت العلاقة السلبية بين الخاطفين والمكان عاطفيًّا؛ فصار المكان طاردًا ملغيًا لوجودهم؛ ولذا يلاحظ أن وصف المكان تحديدًا من مكة وحتى جازان قبل الخروج إلى البحر رسمًا دقيقًا يتيح للقارئ رؤية التفاصيل، وأبعاده، لقرب وطول مكث الشخصيات في المكان، كما أسهم التركيز على وصف تفاصيل المكان إلى تقديم الشخصيات الخاطفة في هيئة ممسوخة؛ إذ مسخت صفاتها المعنوية الأخلاقية والصفات الإنسانية معًا؛ لذا اتسق المكان الطارد وزاوية الشخصية العنيفة التي تنظر للأشياء في ضوء طموحات غير مشروعة تتنافى وقيم المكان.

(ج) العنف السياسي: مكان السلطة وسلطة العنف

1 - إسرائيل: الأنا والآخر

تقدم الرواية دلالات ثرية للمكان في اقترانه بالعنف؛ وتهدف لإظهار العمل في

صورة انعكاس للواقع؛ مما يسهم في تفسير الخصائص النفسية للشخصية، المتأثرة بالأماكن والمؤثرة فيها. وقد برزت إسرائيل بوصفها مكانًا محظورًا ومرغوبًا فيه في آنٍ معًا، وهو المكان الغيبي الذي يظل يحلم به المهربون، دون أن يدركوا أو يسمعوا بواقع حقيقة من يصل إلى هناك ومصيره الذي ينتظره؛ وقد تشكلت صورة هذا المكان على لسان ثلاث شخصيات؛ هي:

1 – جرجس: الذي يمثل النتيجة الإيجابية للعنف؛ ويعني ذلك أن البيئة السلبية نجحت في إنتاج شخصية سلبية تشبهها، إذ كان ذلك المكان سلبيًّا معه ومع (صالحة) طاردًا لهما؛ مما جعلهما في حالة من العداء والمودة مع هذا المكان في مفارقة تتناسب وحالة اللاستقرار التي يعيشانها. يظهر ذلك في الصورة التي يشاهدانها تكرر حياتهما:

أومأ جرجس: يتسللون إلى سيناء ومنها إلى إسرائيل. هزت رأسها هزة العارف... تمتمت: أرض الميعاد. سمعت صالحة الكثير عما سمي بعملية سليمان، حدث ذلك في عام 1990م، قبل عشرين سنة من الآن. كان عمرها ثلاث سنوات، أكثر من ثلاثة آلاف مهاجر أثيوبي غادروا أديس أبابا إلى تل أبيب، مع وعود بالعمل والسكن والمال... قيل بأنهم يتمتعون بحق العودة. العودة إلى أين؟ إلى المكان الذي لم يغادروه أصلًا، ولم يعرفوه قط! الذين فشلوا في البرهنة على يهوديتهم، ومن بين هؤلاء كانوا عائلتها. تمتم قائد القارب: أكثرهم يموت في الطريق... يغرق في البحر، ويدفن في الصحراء. ابتسم جرجس: الطريق إلى أرض الميعاد لا بد وأن يكون جحيمًا (العيسى، 2015، ص.197).

هكذا يعطي التركيز على المكان ببعديه الأصلي والانتقالي عمقًا يوسع دائرة الانتماء إلى الوطن، ويقوي الوعي لدى الشخصية؛ إذ تدرك صالحة أنها لا تنتمي إلى أرض الميعاد، وأن أحلام قدومها إليها كانت لغرض حياة كريمة، بينما الحقيقة أن من حظي بالذهاب مُنِيَ بالاستعباد؛ ذلك أن الانتقال أفقدهم هوية الوطن ثم الهوية الإنسانية. ويتكشف من خلال حوارها مع (جرجس) علاقتها بالمكان القائمة على المصالح المتبادلة فقط، وتبدو (إسرائيل) في أحلام (صالحة) أقوى أثرًا وظهورًا؛

فـ(جرجس) الشخصية الغامضة الموغلة في تدبير العنف، يشبه كثيرًا (إسرائيل) التي لا تظهر في النص المكتوب إلا في هيئة إشارات وذكريات مختصرة جدًّا وعميقة الأثر عنفًا وألمًا.

2 – صالحة: تعكس صورة الشخصية المأزومة أمام قضية الوطن؛ فهي تدرك أن أصولها تعود إلى أثيوبيا بجذور مسلمة، لكنها تتمنى كما تمنى والداها لو أن لها جذورًا يهودية تمنحها حق الحياة هناك في أرض الميعاد؛ إذ تمثل (إسرائيل) بداية الحياة ونهايتها كما تراها (صالحة)، وهي تحاول أن تتبنى مواقف تتناسب مع الوعي بقضيتها: «تتذكر صالحة ما قاله والداها يومًا. تمنى الجميع لو كانوا من يهود الفلاشا. جذورهم المسلمة لم تساعدهم في مجابهة الجوع. همهمت: الفلاشا تعني المنفيين تعني الغرباء. تساءلت لو أنها تسللت معهم إلى إسرائيل، ما نوع الحياة التي ستحظى بها؟» (العيسى، 2015، ص.197)عرض عليها (جرجس) أن تذهب إلى إسرائيل، ثم تساءلت: «وماذا عنك؟ لم لا تذهب إلى إسرائيل إذا كنت تستطيع ذلك؟ لم يرد» (العيسى، 2015، ص.198)، وهي برغم هذه الرغبة في داخلها إلا أنها لا تنسى المخيمات المرتبطة بالطفولة في ذاكرتها، لا سيما وهي تتذكر القوة والبطش التي عومل بها سكانها، وهي تخشى إبان هذ الانتقال أن تعاودها تلك الحياة البائسة.

وعلى الرغم من هذا الارتباط بين (إسرائيل) و(صالحة) و(جرجس)؛ فإن ملامح المكان أو تفاصيله لا تظهر في وصفهما؛ وهو إمعان في غموض المكان، كما أن هذا الإخفاء يعد مسخًا للمكان؛ إذ يفقد صورته الطبيعية والإنسانية. ووَفق هذه الرؤية للمكان وأبعاده والظروف المحيطة بالطبقة المهمشة فيه؛ تتحول نظرة القارئ إلى (صالحة) و(جرجس) و(روينا)، فعلى الرغم من جرائمهم فإن الخلفية الاجتماعية والمكانية والظروف التي شكلتهم تدعو إلى شيء من التعاطف معهم باعتبارهم ضحية أولى لها، استجابت للمؤثرات السلبية بصورة إيجابية.

3 – فيصل: يمثل صورة المشاهد البعيد الذي يراقب البؤرة التي يتمركز فيها الصراع والتسلط؛ ثم ما يلبث أن يجد نفسه مركزًا لها؛ يظهر ذلك حين يشاهد (إسرائيل) للمرة الأولى: «أشار مصطفى بيده يمينًا وقال: هنا إسرائيل. أحس فيصل

بقلبه يضرب بشدة. كانت تلك هي المرة الأولى التي تخرج فيها إسرائيل من نشرة الأخبار، وتصبح شيئًا قابلًا للرؤية واللمس. كل ما أراده هو أن يحج، كيف وصل إلى هنا؟!» (العيسى، 2015، ص.318) تبدو الصورة الثابتة الجامدة محملة بكل معاني الخوف والرهبة والترقب لما يمكن أن تحمله هذه الصلة القريبة في المكان من أبعاد وآثار على جريمة الاختطاف التي راح ضحيتها ابنه (مشاري)؛ ويؤكد ذلك الخوف في ترقبه إجابة (مشعل) وهو يحدثه احتمالات تهريب مشاري: «أجابه شقيقه:

مهرب بشر.

يهربهم وين؟

يهربهم لإسرائيل...

إسرائيل؟! قطب الأب جبينه. اكتسى وجهه بدهشة ساذجة. في كل مرة تظهر تلك الدهشة على وجه الاثنين كان الضيق يملؤه. كأنهما مفصولان عن العالم... هل تعتقد بأن ولدي قد هرب لإسرائيل؟» (العيسى، 2015، ص.333)؛ هكذا تلعب إسرائيل دورًا بارزًا في تخطيط تلك الجرائم والسلوكيات؛ لكن عبورها واختراقها يبدو مستحيلًا، ويؤكد الأثر الذي تركه اسم إسرائيل على قلب (فيصل) أن المكان يحفر ذكرياته السلبية والإيجابية على الذات دون أن يعايشه مباشرة، وقد تربطه به علاقة ألفة ومعاداة بعمق من عايشه، وفي هذا يكمن سر التوظيف الفني للأماكن.

وتبدو المفارقة في تأثير المكان على (فيصل)؛ من حيث إنه تفاعل سلبًا في البدء مع مكة، المكان الأول الذي بدأت فيه رحلة البحث عن الذات و(مشاري)، وصرح بتلك المشاعر الغريبة تجاهه، وهو الآن يقف أمام المكان العدائي الأول ثابتًا دون أن يستطيع التعبير عن مشاعر المقت تجاهه.

2 - مصر : صراعات السلطة والعنف

تنقلت الشخصيات بين أماكن مختلفة في طبيعتها؛ فرحلة (مشاري) من مكة وحتى جازان جعلته يعبر الوادي في مكة، والجبال في عسير، والبحر والسهل والساحل في جازان، وهي ذات الأماكن التي عبرتها بقية الشخصيات؛ يضاف إليها

أماكن مشابهة في طبيعتها عبرها (مشعل) و(فيصل) إلى مصر في رحلة البحث عن (مشاري). وقد تقسمت رحلة البحث إلى مصر بين مكانين؛ هما:

الأول: البحر الأحمر

يحمل البحر عدة دلالات في رواية (خرائط التيه) تنفتح على عالمي الموت والحياة؛ وتتجسد من واقع ثلاث رؤى؛ هي:

1 – مشاري: إذ يحمل البحر دلالة الحياة لـ (مشاري) الذي نجا من الموت المحقق بعد هروبه من القارب الذي حمل عليه المختطفون الأطفال المخطوفين باتجاه الموت.

2 – فيصل ومشعل: وهو يمثل لهما معاني الحنين إلى الوطن، الذي ارتبط بالبحر، وهو أول شيء يلفت انتباههما في مصر بعد الوصول: «ظهرت على يسارهم زرقة البحر. تنفَّس فيصل الصعداء: البحر! غمغم لنفسه: من زمان ما شفته. كانت ملاحظة مارقة، خارجة من سياق الفجيعة. هذا خليج نعمة. قال مصطفى موضحًا» (العيسى، 2015، ص.315)، فهو إذ يرتبط بالفرح عند فيصل يتذكره الآن ويلوح له مذكرًا بلحظات الفرح التي افتقدها.

يثير البحر تساؤلات (فيصل) عن المختطفين:

وجيب قلبه يدوي في أذنيه منذ ست ساعات؛ ابتداءً بمطار أبها الدولي، مرورًا بمطار الملك عبد العزيز في جدة، وانتهاءً بشرم الشيخ. ثلاث مدن في ست ساعات، كم ساعة استغرق الخاطفون لعبور البحر؟ حرك إصبعه صعودًا على سطح البحر الأحمر في الخارطة، منذ جازان وحتى قناة السويس. كم ساعة يا ترى؟ (العيسى، 2015، ص.312).

لقد ألفا البحر، حتى إنهما الآن يستنكران مرور كل هذا الوقت دون أن يشتاقا له، لكنهما الآن يواجهانه بالذهول والتفكر والحيرة، فليس هذا البحر هو الذي اعتاداه، لكنه طريق البحث عن مشاري، طريق يلفه الخوف والقلق.

ويشار هنا إلى اختلاف طبيعة البحر والانتماء إليها في دول الخليج العربي، فعلى الرغم من أن جميع هذه الدول تحيط بها البحار؛ لكن علاقة أهل الكويت مع البحر أقوى.

وعلى امتداد رحلة البحث المتجهة إلى سيناء يظهر البحر ويختفي مثل ومضات الأمل التي تحدث مع (فيصل)، فقد ظهر البحر إبَّان خروجهما من شرم الشيخ إلى العريش؛ إذ ظهر البحر (خليج نعمة)، ثم ظهرت الجبال الصخرية، ثم جاءت الصحراء، والرمال الذهبية، ثم:

لاح البحر عن يمينهم للمرة الثانية قبل بلوغهم مدينة نويبع على الضفة المقابلة لميناء العقبة الأردني، ويرتبط معه بخط بحري؛ لذا يمر به الحجاج في موسم الحج. أحس فيصل بقلبه ينقبض. الحج... حتى هنا شعر أنه مطارد كأنه لا يزال في مكة يطوف حول الكعبة التي لا يراها، نظر إلى ارتعاشات يديه يكاد لا يصدق أنه قدم للحج قبل أحد عشر يومًا (العيسى، 2015، ص.317).

وهو إذ يستشعر مفارقة التوقيت، في طريقة عبور الوقت، يضمر في أعماقه احتمالات الخطر التي تعرض لها مشاري، وثمة مفارقة أخرى في استخدام عبارتي عبور للخاطفين، وصعود لاجتيازه البحر، ففي الأولى طريق للوصول، فيما يحمل اختياره مع الصعود التجاوز والابتعاد عن المكان المطلوب.

ويأتي البحر بوصفه الموقعَ الأول للبحث عن مشاري في مصر، وطريقًا جديدًا للتيه، وانفتاحًا على الخوف والذهول، وسيشبه الصحراء في دلالة الموت. وفيه يتشابه مصير (مشاري) ووالده؛ فكلاهما استطاع اجتيازه للنجاة من الموت، لكنه أدى بهما إلى سلوك طريق آخر إلى الموت بطريقة أخرى... وهكذا يظل البحر دالّا على الموت بطريق مباشر أو غير مباشر.

3 – ويمثل البحر للخاطفين طريقَ العبور الخَطِر للوصول إلى مصر، لكنه يتضمن احتمالات الموت؛ فهو الطريق المؤدي إلى إتمام الصفقات، أو إلى الغرق والموت، لذا فقد استطاع المختطفون تطويع البحر واستغلاله لإتمام عملياتهم غير الشرعية.

وترافق دلالةُ الموت البحرَ حتى على الشاطئ الذي اكتمل تجهيزه بالأسلحة لاستقبال الخاطفين وغنائمهم: «على الشاطئ الغربي لقناة السويس بالقرب من نفق الشهيد أحمد حمدي، كان ثمة سيارة تنتظر وصول قارب يحمل بضاعة جديدة، خمسة أطفال وامرأة واحدة. لاند كروز حديثة الطراز، يقودها مسلحون، مجهزة بالخيام والسلاح والمعلبات الغذائية» (العيسى، 2015، ص.201)

لقد استخدم الخاطفون البحر بوصفه موقعًا من مواقع غزواتهم، كما استخدموا الكهوف والجبال والطرق الشاقة في عسير، وهذا سلوكهم في استغلال دروب الموت لصالحهم بطرق ملتوية للوصول إلى المال والمصالح غير المشروعة.

ويمثل البحر رمز النجاة السري للخاطفين وآخر طرق الدلالة عليهم؛ لذلك فحين تقع إحدى الخاطفات في يد الشرطة، ولعلمها المسبَّق بالمسافة الطويلة التي يستغرقها الوصول إلى ضفة الدولة الأخرى بالبحر تتأخر في اعترافها؛ لتضمن وصولهم إلى هناك: «عبروا البحر. قالت بالكاد، اختنق صوتها في النهاية. هل قالت: بحر؟ صرخ سعود في وجهيهما؛ البحر؟ البحر! تهزان رأسيهما. متى؟ من أسبوع... راحوا سيناء» (العيسى، 2015، ص.276).

ويدرك (فيصل) ارتباط الزمن بخط العبور؛ البحر، لذلك يجد نفسه في مأزق جديد: «لقد كنا نبحث عنه هنا في الوقت الذي غادر فيه إلى سيناء. من يستطيع أن يرسم خرائط التيه هذه؟ أن تأتي إلى المكان الصحيح، في الوقت الخطأ، ما معنى ذلك؟» (العيسى، 2015، ص.281)، ليبدأ من جديد رحلة بحث أخرى في مكان آخر بمساندة قوة أخرى: «أخذ يحرك إصبعه متتبعًا المناطق التي عبرها في الأيام الماضية: الكويت، مكة، عسير، شرم الشيخ، وقريبًا جدًّا شمال سيناء. هل يمكن أن يكون مشاري قد عبر كل هذه الأميال مثله؟» (العيسى، 2015، ص.311) وبرغم ذلك يظل متشبثًا بخط الزمن الذي يشد قبضته على تفكيره: «الطريق من مطار شرم الشيخ إلى مدينة العريش يستغرق حوالي ست إلى سبع ساعات» (العيسى، 2015، ص.315).

الثاني: صحراء سيناء

تقع أحداث العنف في رواية (خرائط التيه) ضمن عوالم مكانية متسعة، تشكل أمرًا محظورًا في نطاقها. وتكمن أهمية الأمكنة وتفاصيلها في استطاعة الخاطفين تنفيذ خططهم ضمن خارطة جغرافية ترفض العنف؛ لكن عملية البحث تكشف المحظورات التي تتم في الخفاء.

وتأتي الصحراء بوصفها النقطة الأخيرة في خارطة البحث، والتي تفضي إلى حقيقة تلك العصابة، وأحد احتمالات المصير الذي كان يتجه إليه (مشاري). لكن الفرصة الأخيرة التي تسنَّت له في الهرب من القارب المتجه إلى مصر جنبته هذه النهاية.

وتمثل الصحراء في صورتها الطبيعية المتعارف عليها لدى المجتمعات البشرية نموذج العادات والتقاليد الأصيلة لإنسانها؛ وهي صور إيجابية تتجلى في شخصية (هويشل) الرجل الذي ترك العمل مهربًا، ثم تحول إلى العمل مع الجهات الأمنية دليلًا متعاونًا.

وتختلف دلالة الصحراء باختلاف موقعها الجغرافي وواقعها التاريخي، فالضياع في الصحراء قد يلقي بعابرها إلى الموت في صور شتى؛ إذ الوقوع فريسة الجفاف والوحشة أو الوقوع بين يدي الوحوش الضارية يؤدي حتمًا إلى الموت، كما قد يفقد عابرها الحرية على يدي قطاع الطرق؛ لأنها منطقة مفتوحة لا تخضع لأنظمة أو قوانين، حيث يعمد قطاع الطرق والعصابات إلى اختطاف حرية ضحاياهم وإيقاعهم تحت نير العبودية؛ مما يسهم في ترويج تجارة الرقيق. فهؤلاء القطاع هم مَن يعرف الطرق السالكة وتضاريسها ويجعلها تجارة تزدهر في موسم الحج –تحديدًا– وهو الأمر الذي يفسر الارتباط الزمني بين الحدث والمكان والزمان. بل إن الخروج عن أنظمة عصابات الصحراء يعد قيدًا جديدًا يفرضه العائد إلى الحق على نفسه.

فإذا كانت الصورة النمطية للموت في الصحراء تأتي نتيجة للضياع والوحدة، أو بين مخالب الوحوش، أو على يد قُطَّاع الطرق، أو شح المطر؛ فإن الموت في هذه

الرواية يأتي نتيجة للعنف المنظَّم الذي تقوده عصابات السلاح والبشر والمخدرات. وخطر الموت الذي تواجهه ضحايا هذه العصابات يقابله فقدان هذه العصابات لحريتها، وتعرضها الدائم للموت في سبيل بقاء سلطتها، فهي أيضًا تعمل ضمن منظومة خطيرة لا تستطيع الخلاص منها، ومن منطلق اليقين بحتمية الموت في هذه الصحراء ومصير ضحايا تلك العصابات؛ فإن والد (مشاري) وعمه: «سعود يريد أن يترجل من الطائرة فورًا ليضرب في الصحراء تنقيبًا عن أعضاء الصبي الذي...» (العيسى، 2015، ص.312).

ويسمح اتساع المدى في الصحراء عمومًا، وفي صحراء سيناء تحديدًا، باتضاح الرؤية كاملة، فكما أن تدفق الضوء في الصحراء فيزيائيًّا يلقي الضوء الحقيقي على الفضاء ويكشف خفاياه، فإن إلقاء الرواية الضوءَ على هذه الصحراء يكشف قضايا الاختطاف وصوره والجماعات المنفذة له، وأشكال العنف وأسبابه والمندسين خلفه؛ حيث يجمع المكان بين المتناقضات والثنائيات، مما يساعد على فك الكثير من شفرات الحادثة وغيرها، إذ يبدو المكان الصحراوي:

المكان الأقدر على التدخل في حياة البشر وتغييرها، باستمرار في الواقع وفي الرواية، فمن الطبيعي أن تتوجه الرواية إلى المساحة الأكبر من البشر قبل توجهها إلى المساحة الأكبر من الجغرافية والأرض، ولم تتوجه إلى الصحراء قبل أن يصبح توجه البشر إلى الصحراء كثيفًا وغزيرًا بفعل الانتقال إلى مواقع النشاط الاقتصادي وتمركز الثروات (العيسى، 2015، ص.8).

هكذا تمثِّل سيناء فضاء الصراع الذي يضم متناقضات عدة، فـ(هويشل) المهرب السابق يصبح دليلًا للمباحث في سبيل إيجاد (مشاري) والوصول إليه قبل تقسيم أعضائه وبيعها، فيما يصبح الضابط الذي ينبغي أن يكون أداةً من أدوات العدل؛ أداةً لتمويه العدالة رغمًا عنه، ودون أن يشعر. فيما تؤدي المقابر الجماعية التي شوهدت دورَ المعادل الموضوعي للأحياء الذين يعيشون تحت الظلم؛ فصحراء سيناء بكل تشكلاتها في الرواية صورة أخرى للمقبرة التي تحتوي جثثًا في بطنها وتظهر مبعثرة على ظهرها.

وتعدُّ هذه الصحراء التي يحدها البحر من كل جهاتها مكانًا صالحًا للعنف؛ حيث تفقد الوعي والأصالة والانتماء، وتتحور فيها الأخلاقيات الإنسانية، بما يمارس فيها من صور العنف النفسي والجسدي والأخلاقي، إذ تقوم فيها الحياة على إلغاء كل طرف للآخر، وفيها يتم رفض الظلم والاعتداء بصور غير شرعية وغير أخلاقية؛ وهي أيضًا صورة واقعية تفسر الأحداث السياسية التي تظهر في شكل نشرات إخبارية:

بزغت الجبال الصخرية على اليمين، غاب البحر وجاءت الصحراء. لمح فيصل فتًى يرعى عددًا من الإبل. يرتدي جلابية رثة وله غرة كثيفة كتلك التي... خيام منصوبة بالقرب من الشارع العام. حبال الغسيل تمتد بين الخيام وتمتلئ بالثياب الملونة. شجيرات إثل تنبت على السفوح. أرخى رأسه إلى الوراء، السؤال يتردد في صدره منذ الأمس؛ لماذا سيناء؟ الاسم يستحضر الكثير من الأمور: منطقة منزوعة السلاح، كامب ديفيد، فراغ أمني. كلمات تقرؤها في شريط أخبار، وباستثناء أخبار الرياضة، ومجلس الأمة، لم يكن يقرأ الكثير. (العيسى، 2015، ص.316)

تسير خطوات بحث (سعود) عن (مشاري) ابن أخيه جنبًا إلى جنب مع ذكرياته التي جمعتهما معًا، وفي مصر حيث البحر والصحراء تذكره بالكويت، يستعيد تلك اللحظات في مفارقات مؤلمة:

كانت الرمال الذهبية الناعمة تتجمع بين الكتل الصخرية. تذكره بالكثبان التي أخذ إليها مشاري في الربيع الماضي، قريبًا من بر الصبية. كان ولده يصعد الكثيب ويتزحلق مقهقهًا. امتلأ بتفاصيل تلك الرحلة؛ كان يتربع مع أمه على بساط السدو أمام دوة الفحم، يشوي الكستناء ويخدر الشاي. سمية تقف على مبعدة خطوتين، تغطي كتفيها بشالها الكشميري وتعقص شعرها الأسود الطويل، تلاحق مشاري بعينين قلقتين، شوي شوي يمه، بالعدال حبيبي! وسعود في قمة الكثيب يهمس في أذن الصبي... احتضن الصبي وتدحرجا على الرمل. (العيسى، 2015، ص.316).

ويستمر (سعود) في استدعاء ذكرياته مع (مشاري):

مذ جئتما إلى سيناء وأنت تقضي لياليك ساهرًا على شاطئ النخيل، مستندًا إلى جذع ميت، مع سجائرك وزجاجتك ودموعك، حولك مئات من أصداف البحر. الموج يغني في أذنيك، الليل يتنزل على قلبك. تؤلمك تفاصيل العريش؛ مدينة نصفها بحر، نصفها صحراء. مثل الكويت. كل شيء هنا يحيلك إلى هناك؛ ملامح البدو، الغترة الحمراء، الدشداشة البيضاء، كل شيء يعيدك إلى وقت كانت فيه الحياة ممكنة. تسرح في البحر الأبيض الهادر أمامك. تعي كم أنت بعيد عن زرقة الخليج. (العيسى، 2015، ص.374).

إذ تشبه المواقع التي عبروها في مصر بالبحر والصحراء بالكويت وذكرياتهما هناك.

يقود هذا التشابه بين بيئتي مصر والكويت إلى بعض الممارسات الجسدية التي كان يمارسها في الكويت (فيصل) وأخوه في ارتياد الصحراء؛ إذ تختلف الصحراء التي تزار للترفيه عن هذه التي يتم البحث فيها عن طفل مفقود، ومن ثم فهي تحتاج إلى استعداد جسدي خاص: «لا يستطيع المرء أن يرتدي نعلًا نجدية ويبحث عن طفل مفقود في صحراء، وماذا كان يرتدي أجدادك للرعي، حذاء أديداس؟ أنا مندهش لأنك تمزح، تبادلا المزاح. فيصل أيضًا جاء إلى مكة يرتدي زي مهندس بترول من الكويت» (العيسى، 2015، ص.329).

ويتمثَّل الخطر الرئيسي في صحراء سيناء في كونها تقع بين سيادتين: سيادة الدولة التي تمثل القوانين والأنظمة، لكنها لا تستطيع ضمان تطبيقها ضد سيادة العصابات والمهربين، التي تعي قوانين الصراعات، ومن ثم فهي تستغل الانتماء إلى الوطن للفوز بمكاسب شخصية ونفوذ، يبدو في شكله الظاهر شخصيًّا، لكن الحقيقة أنه مكاسب للدول الأعداء؛ وهي دول تنظم العنف وتتخذ منه منهجًا يظهر في شكل شبكات متداخلة متشعبة ومتقاطعة يصب في مصالحها فقط؛ مما حوَّل تلك المنطقة برغم مقدراتها وجمالياتها إلى منطقة خوف وتوجس دائم:

عبروا مجموعة من المنتجعات مرورًا بمدينة طابا. ثم اختفى البحر، وجاءت الرمال. صحراء مترامية تملأ العين، رأى في أطرافها سلسلة هضاب. أشار إليها المحقق: هذا

جبل الحلال. نظر الأخوان إلى الجبل. أردف: الحلال عند البدو يعني الغنم... ازدرد المحقق ريقه: كنت على وشك أن أقول بأن اشتباكات مسلحة عديدة وقعت هنا. قطب شقيقه: اشتباكات مسلحة؟ أومأ المحقق: بين الشرطة ومسلحين، بعد تفجيرات طابا وشرم الشيخ، قبل عدة سنوات. استفاض في الحديث عن جبل الحلال فهو أخطر البؤر في شمال سناء، فهو مخبأ للجهاديين، والهاربين من السجون ومهربي البشر وتجار السلاح والمخدرات... الأمن... الجيش المصري ممنوع من الحضور هنا، ولا حتى دبابة واحدة يمكنها الدخول! ما الذي تعرفه عن كامب ديفيد؟ المنطقة ج، تفجيرات الهيلتون، اختطاف سياح، مزارع أفيون (العيسى، 2015، ص.317).

تقف الصراعات والعنف وتداخل السلطات ضد التطور والحضارة؛ لذلك فإن تلك المنطقة تبدو مهجورة فاقدة لأبسط مقومات الحياة الحضارية:

دخلوا العريش من طريق صحراوي مهجور إلا من بعض البيوت الصغيرة التي تظهر بين الفينة والأخرى، وأشجار الزيتون النابتة على الضفاف. قاد المحقق بقية الطريق صامتًا وعندما مروا بمحاذاة مطار العريش الدولي، صاح به العم: لديكم مطار في العريش، لما لم نأتِ جوًّا؟ شرح له: لا توجد رحلات بين العريش وشرم الشيخ، هناك رحلة أسبوعية إلى القاهرة ورحلة دولية إلى السعودية لنقل الحجاج العرايشة والفلسطينين (العيسى، 2015، ص.319).

يلعب (هويشل) –المهرب السابق– دورًا مزدوجًا في عمليات العنف التي تتم في صحراء سيناء؛ فبعد أن قضى عمرًا مع العصابات يلج إلى عالم جديد، وهو التعاون مع السلطة لإرشادهم إلى طرق التهريب، ليس لإيقاف تلك العمليات، إنما لإيجاد الطفل (مشاري)؛ لذا فهو يعطيهم خارطة الطرق التي يسلكها المهربون، والطريق المحتمل لعبور الطفل:

هناك في سيناء ثلاثة طرق للتهريب لا رابع لها. نهض نحو الخريطة على الجدار، أشار بإصبعه الدقيقة إلى طرق التهريب: إما أن تعبر كوبري السويس، ثم تأخذ سيارة دفع رباعية حتى منطقة العجرة الحدودية جنوب رفح مرورًا بالطريق الساحلي. واخذ بال حضرتك؟ يحرك إصبعه متتبعًا خط التهريب، يضيف: ثم بالوظة ورمانة وبئر

العبد والعريش والشيخ زويد، بعيدًا عن الطرق الرئيسية. كل المهربين خبراء في هذه الطرق يا حضرة الضابط، ولا توجد عليها أية حراسة أمنية. ينقل إصبعه: الطريق الثاني عبر كوبري السلام أو معدية القنطرة... هنا. ثم ينقل إصبعه جنوب السويس ويتمتم: الطريق الثالث هو هذا، وهو الطريق الذي تريده أنت. يأخذون المراكب الصغيرة إلى الشاطئ الشرقي من جنوب السويس، ومنها إلى وسط سيناء، وتحديدًا مركز نخل عبر الوديان، ومنها إلى سلك الحدود. سلك الحدود؟ سأل سعود: السلك بين سيناء وإسرائيل؟ هز مصطفى رأسه. وأين يذهبون بعدها؟ مسح الرجل الوجوه بعينيه، تلكأ ثم قال: إلى بيوت الأشباح (العيسى، 2015، ص.336).

هكذا يكشف (هويشل) مرحلة من مراحل عمره فقد فيها صور الانتماء للوطن، وقد عاد به الإحساس الوجداني إلى التراجع عن تلك الأعمال العنيفة التي تتم في تلك الأماكن، ومعالجة تلك السلوكيات بإرشاد السلطات إلى الخارجين على أنظمتها.

ويبدو (هويشل) شخصية منتمية للمكان الذي كان يمارس فيه العنف؛ لذا يتخلى عن تلك السلوكيات بوعي تام لا يبقيه حياديًا سلبيًّا؛ إذ يعطي السلطات المعلومات التي تقضي على قيمه السلبية للماضي ويقبل بإيجابية إلى الحاضر.

لقد ركزت الرواية على وصف الواقع الاجتماعي والطبقي للعصابة الخاطفة المكونة من: (جرجس – روينا – عثمان – صالحة)، لكنها تجاوزت هذا الوصف الدقيق في شخصية (هويشل)، وكذلك (نظام شجاع الدين)، برغم واقع الانتماء المكاني الذي يتأكد مع (هويشل).

ويتأكد الارتباط بين الصحراء بالموت؛ حين يطلب المحقق من (فيصل) وأخيه مرافقته إلى المشرحة: «مشرحة مستشفى العريش، أكثر الجثث التي نجدها في الصحراء تنقل إلى هناك» (العيسى، 2015، ص.322)، الموت الذي يحرض الضابط على سؤال نفسه: «لماذا يختفي طفل في مكة ويبحثون عنه في سيناء» (العيسى، 2015، ص.331)؛ لذا يجد نفسه قادرًا على أن يفسر الموت: «أصبح اليوم يصدق أكثر مما رأى، فكر في تلك الصحراء المترامية بعيدًا عن عين البحر، خارج

العريش، أي سر تخفي؟ سرح في خارطة شبه جزيرة سيناء المعلقة على الجدار المقابل؛ كل تلك الجثث التي لم ينتبه لها أحد، موت مجاني وأكثر، على مبعدة أميال قليلة من المكان الذي يقف فيه الآن. حيوات تنتهي في الصمت المطلق، رمل يبتلع الأموات عميقًا. لا أحد يسمع صراخ أحد» (العيسى، 2015، ص.331)، لقد عاش هذا الضابط في سيناء: «في شريط إخباري مجنون؟ تفجيرات أنبوب غاز، جهاديون يختبئون في المغارات، عبوة ناسفة، اختطاف سياح، تدمير مزرعة أفيون، جثث عند السلك الحدودي» (العيسى، 2015، ص.333).

يتساوى الموت في ظروفه وتفاصيله في كل مكان؛ غير أنه في صحراء سيناء يميز الأبيض عن الأسود:

أشار المحقق إلى فيصل: هادا الرجال خطفوا ابنه. هذا الرجال؟ أيوه. هز البدوي رأسه: ما يصير. إشو قصدك؟ هذا الرجال مو هو أفريقي. احنا عارفين إنه مش أفريقي. نظر الرجل إلى فيصل مقطبًا يتفحصه مرتابًا. كيف؟ كأنه يسأله، كيف وصلت أنت إلى هنا؟ أحس فيصل بتساؤلات الرجل تثقبه من الداخل؛ ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ هذا الجحيم ليس لك. لم يكن يعرف بأن هناك تمييزًا في العذاب أيضًا؛ مكانًا للبيض، مكانًا للسود. وهؤلاء الذين يسحقون كل يوم تحت عجلات العالم الجديد، الذين يعبرون جغرافيًّا العطش وخرائط التيه لأجل أن يعيشوا، ولا ولده لا ينتمي إليهم (العيسى، 2015، ص.334).

لقد كشف الحوار الأولي عن الإشكالية التي أحضرت فيصل للبحث عن (مشاري) في صحراء سيناء عن أن هذا الطفل لم يكن ضمن خطة الاختطاف المنتظمة التي تتم في هذه الصحراء؛ ثم ما لبث (هويشل) أن فسر لهم السر في تهريب الأفارقة إلى (إسرائيل) عبر مصر، يقول (هويشل):

أنا لم أتاجر بالأفارقة، كنت أقدم لهم خدمة، فأنا أعرف هذه الصحراء مثل باطن يدي، وأستطيع مساعدتهم على العبور، ولا علاقة لي بما يحدث في بيوت الأشباح... لم أكن أعرف بأنها معتقلات... عفوًا يا حضرة الضابط، هل يبدأ هروب الأفريقي

من سيناء؟ ألم تسأل نفسك من أين يأتون؟ الأفريقي يأتي من إرتريا والسودان ونيجيريا وإثيوبيا، وقبله جاء الروسي والصيني والجورجي. لقد عبروا كل حدودنا البرية والبحرية والجوية، ولم يعترضهم أحد، ولا أحد يعترض المهربين أيضًا، هل تساءلت مرة، لماذا لا يتعرض لهم الأمن؟ لأنهم مسلحون ويجيدون الاختباء! ليس هذا السبب الوحيد، وليس كل ما يعرف يقال يا حضرة الضابط. متى فعلتم شيئًا لأي من قضايا الاختطاف التي تحدث كل يوم هنا؟ هناك عشرون نقطة عبور بين الإسماعيلية وسيناء، لماذا لم يعترض أي منها طريق المهربين؟ ألم تسأل نفسك؟ قاطعه مصطفى. هناك فساد في كل مكان، ولكن هذا ليس سببًا لكي تعمل في التهريب. صاح هويشل. ولكن عندما تجد نفسك مخيرًا بين الجوع والتهريب ثم تختار الجوع، تعال وحاكمني! لقد عشت ملكًا، كنت أربح عشرة آلاف دولار في اليوم أحيانًا، أردف هويشل. الأفريقي يدفع من ألف إلى خمسة وعشرين ألف دولار لتهريبه. إذا كان لديه هذا المبلغ، فلماذا يهاجر؟ سأله سعود. هو يستدين المبلغ على أمل أن يسددها إذا وجد عملًا في إسرائيل. تخيل أنك تريد التسلل إلى إسرائيل، وجودك على أرض مصر غير قانوني، ودخولك إلى إسرائيل غير قانوني. لا توجد سجلات تدل على وجودك أنت رسميًّا، لا أحد. المهرِّب الذي اتفقت معه لمساعدتك بدلًا من تهريبك إلى إسرائيل سوف يبيعك إلى مهرِّب آخر، والآخر إلى آخر، مع كل صفقة سوف يزداد سعرك، تتحول من متسلل إلى عبد مملوك... (العيسى، 2015، ص.339).

يكشف (هويشل) عن مصير ضحايا الممارسات العنيفة التي كانت تمارس في صحراء سيناء؛ إذ تقود إلى نهايتين مأساويتين؛ إحداهما: أن تتحول تلك الأجساد المنهكة إلى جثث مرمية بعد سلب أعضائها والمتاجرة بها، والأخرى: أن تصبح سلعًا تباع مرة بعد أخرى، فيزداد ثمنها بعد كل متاجرة.

لقد كوَّنت البيئة الصحراوية الواقعة نهبًا لعدة صراعات عنيفة شخصيةَ (هويشل)؛ وهو ما يؤكد: «أن البيئة الموصوفة تؤثر على الشخصية وتحفزها على القيام بالأحداث وتدفع بها إلى الفعل، حتى إنه يمكن القول إن وصف البيئة هو وصف مستقبل الشخصية» (العيسى، 2015، ص.30)، هكذا يؤثر المكان سلبيًّا في

شخوص أفراده، ويصبح مرتكزًا تنهض عليه ممارساتهم في نطاقه، فالشخصيات فيه وإن تغيرت أحوالهم وارتدعوا فليس ذلك لتغير المكان، لكن لأنهم عادوا لأصولهم الإنسانية قبل فرض السلطة السياسية على المكان وانتشار العنف فيه. وتبدو المقارنة بين هذا المكان المحرض على العنف نظرًا للصراع السلطوي، وبين جازان، الأرض التي تبدو طاردة وملغية للعنف، في انعكاس الأثر السلبي والإيجابي للمكان؛ إذ يصبح المكان أقوى، إذا خضع لقوة وسلطة شرعية تنتمي له، يتضح ذلك مع المنطقة الجنوبية في المملكة العربية السعودية التي لم توِ الخاطفين فترة طويلة ونبذتهم، فيما ظل الإنسان في سيناء أقوى من سلطة المكان الذي خلا من السلطة المحلية، وظل منطقة نزاع مليئة بالصراعات العنيفة.

وكما انتهت قصة البحث عن (مشاري) في جازان في الكهف، تنتهي في سيناء بالوصول إلى الكهف الذي يخبئ فيه (السلطان) الأفارقة. والفارق بين الكهفين أن كهف (مشاري) تبدأ منه حياته الجديدة بعد انتهاء مأساة الاختطاف، وفي كهف (السلطان) تنتهي الحياة، ففيه تتحول أجساد الأطفال إلى جثث وتصبح الأرض مقبرة (العيسى، 2015).

لقد تصاعدت الأحداث وقطع (فيصل) نطاقات متسعة وأماكن ذات طبيعة مختلفة حتى وصل إلى الصحراء؛ بدء الخليقة. وحين يصل إلى هذه النقطة من البداية يصله الاتصال من زوجته (سمية) بالعثور على مشاري في جيزان، في توازٍ دلالي بين الموت والحياة في هذه الصحراء، ففي الوقت الذي كان يقلِّب بصره بين الجثث، اتصلت به من عسير، «سمية تصيح: مشاري هنا، فيصل، مشاري في السعودية، ما الذي تفعلونه في سيناء؟!» (العيسى، 2015، ص.390).

لقد برز المكان بصفة ذاتية توازي الشخصية الروائية؛ إذ كان ينطق ويصوغ الأحداث، ويفكر ويدافع عن الضحايا، ثم تحول إلى مستودع من العواطف، والمشاعر، والأفكار الكامنة المخفية غير الظاهرة التي تضمر في داخلها الأحاسيس، وتشاهد وتتابع الأحداث، ثم لا تلبث أن تعاقب المجرم.

لقد أكدت الرواية أنها رواية مكان بامتياز من دون إنقاص من فاعلية وشأن العناصر السردية الأخرى؛ لأن التفاعل وترابط النسيج السردي فيما بينها لإظهار الواقع المجسد على بعد مكاني لم يجعل أحدهما يطغى على الآخر؛ مما جعل التجسيد الحسي للمكان داخل الرواية يتبلور ويظهر بفاعلية مع العناصر الأخرى، ولا سيما الشخصيات التي اخترقت الأمكنة، فبثَّت مشاعرها وأحاسيسها تجاهه، ما جعل هذه التجسيدات الحسية والنفسية للمكان معادلًا للشخصيات والمكان؛ تلك المشاعر التي لم تكن مشاعر ألفة أو حب أو انتماء، وإنما فهم لتلك التفاصيل رغبة في البقاء على قيد الحياة وامتلاك المال فقط، وذلك الإحساس الذي امتلكه المكان جعله يلغي وجودهم ويقذف بهم خارجه.

لقد ساهم الحضور المكاني وطبيعته في رسم وتحديد أبعاد العنف وأشكاله وصوره، فالعنف أصيل في الذات، لكن يتعمق معناه وصورته بحضور المكان وطبيعته.

لقد ارتبط المكان بالعنف، وتجلى ذلك في عدة أمور، منها:

1 – ارتبط الموت والحياة بأماكن الانتقال والحلول التي جعلت المكان مسرحًا لهما، يعرض أشلاء الضحايا في موقع منه، ويمنح فرصة الحياة لآخرين، وفي بعض الأحيان في ذات الأماكن الطبيعية في مفارقات مدهشة؛ إذ يظهر الكهفُ كنهاية الحياة في سيناء للضحايا الأفارقة وبداية الحياة لمشاري في جازان، حيث حمل الكهف مفارقة مكانية نفسية تحدد كل منها الحالة الشعورية للشخصية التي تعيشها، إذ يعيش فيصل وأخوه حالة الذهول والشرود الذهني، نتيجة المشاهدات العنيفة المتخيلة لضحايا لا يمتون لهم بِصِلَة، في حين يشعر مشاري بأن الكهف طريق النهاية، لكنه يحمل له حياة جديدة تفاوت نسبة التأثر النفسي لنفس المكان.

يكتب النص صورةً متعددة عن الموت بدلالات مختلفة، فالموت هو أول ما يتبادر إلى الذهن بعد اختطاف مشاري؛ إذ يبدأ البحث في ثلاجة الموتى في مكة. هذه الصورة للموت تتكرر في سيناء بشكل آخر، حين يدخل فيصل المشرحة؛ ذات المكان الشعوري الذي ولد دفقات شعورية، وهواجس نفسية مضطربة عصفت بفيصل

وأعادت طريقة تفكيره في البحث، لكنها نالت من شخصيته واضطرابه واستقراره النفسي، على الرغم من أن المكان أصبح مدركًا له، ولم تكن تلك زيارته الأولى له، لكن جثة الطفل الوحيد التي شاهدها في مكة لا تشبه حال تلك الجثث التي رآها في مشرحة سيناء.

2 – يتفاعل ويترابط النسيج السردي بين الأحداث والشخصيات والمكان؛ لتجسيد الواقع على بُعد مكاني قد يجعل أحدهما يظهر على حساب الآخر، وإن كان التجسيد الحسي للمكان داخل نصوص الرواية لا يتبلور ويظهر من دون فعاليته مع العناصر الأخرى، ولا سيما الشخصيات التي تخرق جمود المكان وثباته.

3 – يرتبط تجسيد المكان بأبعاده النفسية الفاعلة في الأحداث التي تخلق الواقعية المقنعة، بين الأمكنة المتفرقة والمتعددة؛ مما يجعل تجسيد قضية عربية مترابطة أكثر إقناعًا في رواية حدث ممتد على هذه المساحة من الأمكنة في فترة زمنية قصيرة، وذلك من خلال إلباس الأمكنة لبوسات الواقعية من خلال المعالم البارزة فيها. وعلى الرغم من أن تلك الحوادث المختلفة والمشاهد المرعبة حدثت في مكان آخر غير وطن الشخصيات الضحايا الحقيقي، فإنها ستصبح سمة من مخاوفها، وستترتب عليها الآثار النفسية والحالات الشعورية المضطربة الهلعة التي ستطبع في نفس وذهن الشخصيات معًا حول واقع مكانها المعيش.

لقد وجَّهت الروائية اهتمامها إلى جغرافية المكان وخريطته وتضاريسه؛ لأن أحداث العنف تزداد بتعقد تلك التضاريس وتتسع باتساع رقعتها، وهي تتسع حتى تصل إلى (إسرائيل)، ثم تقف ولا تستطيع التقدم منها، إنما تعود مرة أخرى أدراجها من حيث بدأت حتى تنتهي في المنتصف، ثم يعود إلى الوطن بعد فقدان الذات تمامًا.

ثالثًا: تسمية الفصول والدلالة المكانية

يؤدي العنوان دورًا أساسيًا في تعميق الفهم وتقديم معانيه للمتلقي؛ فهو أولى عتبات النص التي يكتشف من خلالها النص الأدبي، وهو يؤسس لمنطلقات تسهم في كشف المعالم الخفية في العمل الأدبي.

وتقارب الدراسة العلاقة بين العنونة والدلالة المكونة لها؛ إذ يحيل عنوان الرواية الخطي (خرائط التيه) إلى التخطيط المنظم للضياع والتيه؛ جاء على لسان (فيصل): «لقد كنا نبحث عنه هنا في الوقت الذي غادر فيه إلى سيناء. من يستطيع أن يرسم خرائط التيه هذه؟ أن تأتي إلى المكان الصحيح، في الوقت الخطأ، ما معنى ذلك؟» (العيسى، 2015، ص.281)، من خلال مستوى تركيبي مكون من جملة اسمية تتكون من مضاف ومضاف إليه، وهما اسمان يؤديان معنى واحدًا بدلالتهما الارتباطية، في حين أن حذف الخبر يعبر عن معنى غير مكتمل مفتوح على فضاء مجهول وغائب، تخبر عنه أحداث الرواية.

ويشي التركيب غير المتجانس بين المضاف والمضاف إليه (خرائط التيه) على أهمية البحث عن الشفرة العلائقية بين مفردة خرائط الدالة على التركيز والتنظيم والتحديد الدقيق، ومفردة التيه التي تدل على الضياع والتشتت، وتعبر لوحة الغلاف عن العنوان الرئيس الذي يحمل المفارقة بين الخرائط والتيه، وهي تحمل تأويلًا يكشف عن المعنى العام الممثل في اجتياز هذه الخرائط بحثًا عن الذات (الطفل).

وتمتد دلالة العنونة الرئيسية لتشمل عنونة الفصول الدالّة على العنف؛ إذ تشي العناوين التي صيغت على وزن (فعيل) –أحد الأوزان الصرفية الدّالة على المبالغة– بالسلوكيات والدلالات المعنوية لحدث الاختطاف، كما تدل في بعض معانيها على المكان؛ والتسميات على وجه الترتيب بدءًا من الفصل الأول وحتى الرابع عشر على الوجه التالي:

نفير، هجير، سعير، عسير، مسير، نذير، نعير، سرير، هدير، جزير، نشير، جرير، مصير، نمير.

ويفسر الجذر اللغوي معنى (نفير) من: «نفر، الذي يعني التفرق، والنفير القوم الذين يتقدمون معك وينافرون في القتال» (ابن منظور، 1994، ص.224)، ويوحي عنوان هذا الفصل بالدلالة على التفرق والفراق؛ التي بدأت بمفارقة المكان الوطن والاتجاه إلى (مكة) ثم مفارقة (مشاري) لأهله بعد اختطاف(روينا) له من(مكة)

والاتجاه إلى عسير، وهي الأحداث الشخصية التي تتوازى مع حدث النفير الأكبر الذي يمارسه الحجاج في نفرتهم ومفارقتهم الحرم باتجاه عرفة.

ويحمل عنوان الفصل الثاني (هجير)، دلالة الزمن والمكان والإحساس؛ إذ تدل المفردة لغويًّا على: «التباعد والهجر والهجير موضعان، والهجير: الحوض، والهجير: نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر وهو شدة الحر» (ابن منظور، 1994، ص.254)، وقد أخبرت الرواية في هذا الجزء التحديد الزمني من النهار الذي بدأ فيه طريق التباعد بين (مشاري) وذويه، إضافة إلى بدء الشعور الخفي بالخوف من هذا الحدث.

ويشعر عنوان الفصل الثالث (سعير) ، ببدء اتضاح نوعية الاختطاف وأنه يدخل في منظومة تخطيط محدد؛ وهو معنى يدل عليه الأصل اللغوي فـ:"السعير: النار والحرب، وسعرهما أوقدهما، وتسعرت: استوقدت وتسعرت، ونار سعير مسعورة"(ابن منظور، 1994، ص.365).

تصل (روينا) في الفصل الرابع إلى (عسير) –وهو عنوان هذا الفصل– حيث تشعر بفداحة الخطوة التي أقدمت عليها، فيزداد الأمر صعوبة وتعقيدًا، ويتضح التطابق الدلالي الدقيق بين المفردة ودلالتها: «فالعسر ضد اليسر، وهو الضيق والشدة والصعوبة» (ابن منظور، 1994، ص.562).

وتسمي العيسى الفصل الخامس (مسير) التي تعني السير والذهاب؛ ومنها: «سار القوم يسيرون سيرًا ومسيرًا إذا امتدَّ بهم السير في جهة توجهوا إليها، وسيره من بلده: أخرجه وأجلاه» (ابن منظور، 1994، ص.389)؛ حيث تبدأ العصابة في السير إلى حيث يتم تسليم المخطوفين إلى مصيرهم المحتوم، فيما يبدأ ذوو المخطوف في السير للبحث عن (مشاري).

ويشعر الفصل السادس من خلال عنوانه (نذير)، بالشعور الداخلي الذي تولد في ذات (فيصل) بعد تلقيه الاتصال من الخاطف؛ باتساع دائرة الخوف، والنذير في اللغة من : «الإنذار، والنذير: صوت القوس؛ لأنه ينذر الرمية، والنذير: اسم الإنذار، والنذير: المحذر، والنذير: الشيب» (ابن منظور، 1994، ص.201).

ويكمل الفصل السابع (نعير) ذلك الشعور المتعاظم بالخوف، وتدور أحداث هذا الفصل بين البحر الذي يحمل الخاطفين، وبين جازان ؛ حيث استشعار (مشاري) الخطر القادم إليه، فالنعير، هو: «الصياح، والنعير: الصراخ في حرب أو شر، وفلان نعير الهم: أي بعيده» (ابن منظور، 1994، ص.220).

وتدل مفردة (سرير) في الفصل الثامن لغويًّا على: «المضطجع، والجمع أسرة، والسرير الذي يُجلس عليه معروف، وسرير الرأس مستقره في مركب العنق. وسرير العيش خفضه ودعته وما استقر إليه واطمأن، وسرير الكمأة: ما عليها من التراب والقشور والطين، والسرير: شحمة البردي» (ابن منظور، 1994، ص.360)، وليس ثمة ظهور للسرير بهذا المعنى خلال هذا الفصل؛ غير أن الحدث الفج الذي يحويه هذا الفصل هو ما تشير له العنونة بشكل خفي؛ إذ يتعرض (مشاري) للاعتداء الجسدي من (نظام شجاع الدين).

ويمضي الفصل التاسع المعنون بـ(هدير) في انتظار إفاقة (روينا) من الغيبوبة والاستماع إلى هذيانها في الاستدلال على مكان (مشاري)، والهدير: "هو تردد صوت البعير في حنجرته، وإبل هوادر، وكذلك هدر تهديرًا"(ابن منظور، 1994، ص.258)

ويعنون الفصل العاشر بـ (جزير)، والجزير: «هو الذي يجزر الجزور، وحرفته الجزارة، والمجزر موضع الجزر، والجزير رجل يختاره أهل القرية لما ينوبهم من نفقات من ينزل بهم من قِبل السلطان» (ابن منظور، 1994، ص.136)؛ إذ يمارس (نظام شجاع الدين) عمل الجزار في تغذيه البهائم حتى يحين موعد تذكيتها، وكذلك كان يفعل مع (مشاري).

ويحمل الفصل الحادي عشر (نشير) أخبارًا جديدة عن (مشاري) تشعر بأنه ما يزال حيًا؛ لا سيما أنه ليس من ضمن الفئة المستهدفة بالاختطاف من العصابات الإجرامية: «والنشر: الريح الطيبة، والنشر: الريح، ونشر الميت: أحياه» (ابن منظور، 1994، ص.206).

وتكتمل في الفصل الثاني عشر(جرير) أحداث جريمة(نظام شجاع الدين) بحمله الفريسة (مشاري) للكهف حتى يتسنى له التخلص، والجرير: «حبل الزمام، وهو حبل من أدم يخطم به البعير، وهو يثني أنف البعير والفرس، والجرير: حبل مفتول» (ابن منظور، 1994، ص.127).

ويأتي الفصل الثالث عشر بعنوان (مصير)، ويعني: «المِعَى، وهو فعيل، وخص به بعضهم به الطير وذوات الخف والظلف، والجمع أمصرة ومصران ومصارين، وقال بعضهم: مصير مفعل، من صار إليه الطعام» (ابن منظور، 1994، ص.176)، والمصير: ما ينتهي إليه الأمر؛ وهنا ينتهي حدث الاختطاف بوصول (سمية) إلى مكان (مشاري) وإخبارها (فيصل) بذلك.

ويختتم الفصل الرابع عشر بعنوان (نمير)، ويخبر المعنى اللغوي أن: «والنمر والنمير كلاهما الماء الزاكي في الماشية عذبًا كان أو غير عذب، ماء نمير أي ناجع، والماء النمير: الكثير، ونمير: زاك، ونمر ونمير قبيلتان، ونميرة: موضع» (ابن منظور، 1994، ص.236)، وتتم أحداث هذا الفصل في موضع واحد لا يرد في كل الرواية إلا في هذا الموضع وهو (مزرعة الشيخ عيسى مفتاح)، حيث يعكس صورة الإنسان الفطري الذي يجسد أخلاق الأرض بطهرها وبراءتها.

هكذا تمثَّل المكان بوصفه جسدًا حسيًّا له أبعاده النفسية والأخلاقية والإنسانية، وتأثيراته الشعورية على الشخصيات؛ ومن ثم التحريض على الأفعال أو الدفاع عنها، تجلت في علاقة متفاعلة بين عنصري (المكان، والشخصية) داخل نسيج الرواية، إذ لم يكن المكان إطارًا أو ديكورًا، بل تجسيدًا حقيقيًّا وحسيًّا لمشاعر ووجهات نظر الشخصية وإسقاطاتها النفسية، تعكس الواقع المتأزم بفعل ممارسات العنف، والقتل، وانتشار الجثث... وغيرها من الممارسات وانعكاسها على واقع العربي الذي يعيش في هذه الظروف والاختيارات المتاحة له من أجل العيش، ذلك الواقع الذي مثلته بعض شخصيات الرواية مثل (هويشل) و(روينا) من خلال تجسيد أحاسيسها ورؤاها عن المكان الذي شكَّل شخصيتها العنيفة، حتى وإن خرجت منه.

ثمة مفارقة تتجلى في أن المكان الذي تطارد فيه السلطة الخارجين على القانون يبدو مكانًا أليفًا حتى بالنسبة للمجرمين، فيما يتحول المكان الذي يطلق فيه العنف أشرعته دون حدود قانونية ويصير مكانًا عدائيًّا حتى للمجرمين أنفسهم، وكأنما يفر العنف من العنف.

وتمتد المفارقة في فكرة الوطن الذي يمثل للضحايا مكانًا أليفًا وللخاطفين مكانًا معاديًا، ومن ثم فإن الأوطان هي المكان الأول الذي صنع الشخصيات: «لأن المكان المضاف هو مكان هذا المتمكن، وإن لم يكن متمكنًا لم يكن مكانًا» (المرزوقي، 2000، ص.149)؛ مما يعني أن التأثير المتبادل بين الشخصيات والمكان هو ما يمنح المكان صفة المكانية، أما المكان الثاني؛ فالشخصيات تسعى لصنعه والتحكم فيه وتسخيره لغاياتها وأهدافها المشروعة وغير المشروعة، هكذا يصنع المكان أبناءه ويؤثر فيهم، لكنه قلما يؤثر في الأشخاص الطارئين عليه.

الخاتمة

تعد رواية (خرائط التيه) من الروايات التي تناولت بأحداثها المتأزمة خريطة جغرافيةً في فترة زمنية محددة، جسدت آثار الثورات العربية وفاعليتها، وواقع تلك الدول قبل الثورة وبعدها، واتخذت من مصر نموذجًا لها، واصفةً أنواع العنف التي كانت تجري في صحرائها من الخطف والقتل والتجارة الممنوعة، وغيرها من الممارسات الإرهابية العنيفة الوحشية. حيث يمكن أن نلمس إيقاع الحياة للشخصيات العنيفة والضحايا والمحايدة في ظل العنف وخطر العيش وفوضى الحياة وسوداويتها وغيرها من المآسي التي يتعرض لها الإنسان العربي الذي يعيش بالقرب من (إسرائيل)؛ وانعكاس أثر ذلك القرب على سلوكياتهم وأعماقهم وهوياتهم.

لقد سعت الدراسة إلى مقاربة أبعاد العنف وتجلياته المكانية؛ من خلال شخصيات لا تمتُّ للمكان بِصلة؛ مما قاد إلى جملة من النتائج، أهمها:

1 – عالجت الدراسة مفاهيم العنف ومستوياته، ورجحت أنَّ العنف المعنوي أوسع أثرًا من العنف الجسدي؛ فالعنف الجسدي يقع على شخص، بينما أثره النفسي يقع على المحيطين به أيضًا. وقد بدأ العنف في الرواية جسديًّا مسلطًا على شخص واحد؛ لكن أثره امتد على خريطة جغرافية مترامية الأطراف.

2 – عكستِ الدراسةُ تقديمَ الرواية للشخصية التي يقع عليها العنف الجسدي جسديًّا في هيئة ضعيفة هزيلة، مقارنةً بالشخصيات الخاطفة؛ إضافةً إلى مقارنتها بالبيئات التي تجتازها، وهي تمتاز بالوعورة والصعوبة؛ مما يعكس عجزَ تلك الشخصية بتلك البنية عن مقاومة العنف والخاطفين. وفي المقابل، ركزت على وصف الشخصيات الخاطفة جسديًّا، وهي شخصيات قوية البنية، ساعدتها بنيتُها الجسدية في التعرف على المكان وتطويعه لأغراضها العنيفة. وقد وصفت الرواية الشخصيات الأخرى التي وقع عليها أثر العنف معنويًّا بأوصاف روحية نفسية فقط تتواءم وحالتها النفسية، وهي أوصاف محددة تؤدي إلى توجيه الفعل الروائي.

3 – كشفت الدراسة تغييب الحوار والاكتفاء بالمونولوج الداخلي؛ وهي تقنية سردية يعكس غيابها، غياب التفاعل مع البيئة، وتفاعل المجموعات البشرية بين بعضها البعض البين، فيما يتعمق الصراع النفسي داخل تلك الشخصيات.

4 – وجدت الدراسةُ أن الرواية قد تناولت جميع التضاريس الجغرافية، التي تتماهى مع تدرجات الحدث في تطوراته، حتى الوصول إلى مرحلة الحل؛ مما يجعل المكان رمزية من رمزيات الحدث.

5 – توقفت الدراسة عند بعض الأبعاد الاجتماعية المتمثلة في الممارسات السلوكية المرتبطة بالمكان، التي انتقلت إلى بعض الشخصيات الخاطفة، وعكست أثرها عليها؛ مما جعلها تشعر أنها جزء منها، فانعكست في بعض التقاليد والسلوكيات الحياتية التي مارسها (شجاع نظام الدين)؛ لكنها لم تستطع تهذيب أخلاقياته، وتكوين مبادئه الإنسانية.

6 – جلت الدراسة جزءًا من الصراع الديني والعرقي، المكون الرئيس للعنف في شخصيات الخاطفين، الذين كانوا ضحية أولى لتلك الصراعات.

7 – لاحظت الدراسة اختلافَ مفهوم الوطن ودلالته بين الخاطفين والضحايا، واتفاقهم في الحنين والاشتياق له، برغم سلبيته مع الخاطفين، وإيجابيته مع الضحايا.

8 – كشفت الدراسة أن الوصف العاطفي للمكان يعكس عمقًا وانتماءً وإحساسًا بالهوية المرتبطة به، وبقدر عمق الانتماء والهوية الوطنية أو الإنسانية تتحجم أعمال العنف وتتقلص.

9 – يمنح المكان ساكنيه حماية وحاجاتٍ إنسانية. لكن الانتماء شعور أصيل للموطن الأول، لا ينتقل إلى وطن آخر يمنح بسخاء إذا ما قورن بالوطن الذي يسلب منهم كل شيء، ويكون شخصيات معادية للإنسانية والحياة، وهذه الشخصيات العنيفة تتعرف على كل الأمكنة غير الوطن معرفةً عميقة وتتناغم معها، وتستغل مقدراتها، دون أن تتأثر بأخلاقياتها.

10 – شكلت طبيعة المكان نوعية الفعل السلوكي العنيف، ووجهت الفعل الروائي، في خط يتوازى مع حركة الزمن الفاعلة.

11 – مثَّل المونولوج الداخلي، أو حديث النفس لغةَ الحوار الوحيدة بين العصابات الخاطفة، وهذا النوع من الحوار يرتبط بشكل وثيق بالحالات النفسية المضطربة، ويبدو ذلك متسقًا مع لجوء تلك الشخصيات التي تعاني من حالات الاضطراب والضياع وحالتها النفسية المضطربة والفاقدة للسيطرة على مدركاتها وأفكارها وهواجسها؛ إلى تلك الأماكن الخفية عن الأعين لممارسة سلوكياتها العنيفة غير السوية.

وتتجه الدراسة في ختامها إلى رصد التوصيات التالية:

1 – العناية بدراسة الوعي بالزمن في روايات بثينة العيسى، والعتبات النصية، التي توليها عناية كبيرة في جميع رواياتها. كما أن الدراسات السيميائية ستجد في أعمالها الروائية حقلًا خصبًا للرمز والدلالة.

2 – رصد المرجعيات الثقافية في هذه الرواية الاجتماعية والدينية تحديدًا، يسهم في دراسة جيدة لآليات توظيفها في روايات بثينة العيسى.

3 – يعد الوطن مفهومًا واسعًا متعدد الدلالات، ففي كل عمل من أعمال العيسى يحمل دلالة مغايرة عن سابقتها، تتضافر جميعها في بناء هذا المفهوم، الذي يستحق الرصد في المنتج الروائي للعيسى.

المراجع

أبو العلاء، محمد حسن. (1998). *العنف الديني مصر، دراسة في علم الاجتماع السياسي*. مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر.

بحراوي، حسن. (1990). *بنية الشكل الروائي*. المركز الثقافي العربي.

بدوي، أحمد زكي. (1982). معجم *مصطلحات العلوم الاجتماعية*. مكتبة لبنان.

البنا، أنور حمودة. (2006). *الأمراض النفسية والعقلية*. دار الفكر العربي.

حسين، خالد. (2000). *شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجًا*. مركز الرياض للمعلومات والدراسات - كتاب الرياض.

صليبا، جميل. (1982). *المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية*. دار الكتاب اللبناني.

عبدالمعطي، محمد علي. (1984). *قضايا الفلسفة العامة ومباحثها* (ط. 2). دار المعرفة الجامعية.

العدواني، أحمد. (2011). *بداية النص الروائي مقاربة لآليات تشكل الدلالة*. المركز الثقافي العربي.

العدواني، معجب. (2002). *تشكيل المكان وظلال العتبات*. النادي الأدبي الثقافي.

العيساوي، عبدالرحمن. (1990). *علم النفس الجنائي: أسسه وتطبيقاته العلمية* (ط. 2). الدار الجامعية.

العيسى، بثينة. (2015). *خرائط التيه*. العبير للعلوم ناشرون.

قاسم، سيزا. (2002). *القارئ والنص والعلامة*. المجلس الأعلى للثقافة.

القاضي، محمد وآخرون.(2010). معجم *السرديات*. دار محمد علي للنشر.

لحميداني، حميد. (1993). *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*. المركز الثقافي العربي.

محيي الدين، ناصر نمر. (2012). *بناء العالم الروائي*. دار الحوار للنشر والتوزيع.

المرزوقي، أبو علي. (2000). *الأزمنة والأمكنة*. عالم الكتب.

منظمة الصحة العالمية جنيف. 2002). *التقرير العالمي حول العنف والصحة*. المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، القاهرة.

ابن منظور، جمال الدين. (1994). *لسان العرب* (ط. 3). دار صادر.

موسى، فريدة إبراهيم. (2012). *زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية- دراسة نقدية*. دار صداء للنشر والتوزيع.

النصير، ياسين. (1986). *إشكالية المكان في النص الأدبي*. دار الشؤون الثقافية العامة.

هلسا، غالب. (1989). *المكان في الرواية العربية*. دار ابن هانئ.

الكتب المترجمة:

باشلار، غاستون. (2000). *جماليات المكان* (غالب هلسا، المترجم). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. (العمل الأصلي نشر عام 1957).

فرويد، سيغموند. (1981). *التحليل النفسي للهستيريا حالة دورا* (جورج طرابيشي، مترجم). دار الطليعة الجديدة. (العمل الأصلي نشر عام 1901).

فوكو، ميشيل.(2008). *جنيالوجيا المعرفة* (أحمد السطاتي، وعبدالسلام بن عبدالعالي، المترجم). دار توبقال. (العمل الأصلي نشر عام 1969).

لالاند، أندريه. (2012). *موسوعة لالاند الفلسفية* (خليل أحمد خليل، مترجم). منشورات عويدات. (العمل الأصلي نشر عام 2001).

Abstract

The aims of the Study: The research aims to approach violence formations and manifestations in light of the narrative place through describing the place in line with the grades and levels of violence. The novel's characters do not belong to the place and are not even part of it; however, they turn to it seeking safety. The research proposen an answer for two major questions in the study: How the place can manifest the type of violence? and What is the role of the visiting authorities in forming the types of violence? The significance of studying violence manifestations through the place's map stems from the novel's abundant spatial diversity in which the systematic violence formations were drawn. Thus, the novel opened varied spaces of the place, which highlights the human nature and the way they exploit collective and individual acts of violence. **Methodology of the Study:** The study uses the descriptive analytical approach to explore the manifestations, forms and ways of violence through the spatial diversity. **Results of the Study:** The major findings include the following: The human identity and sense of belonging to the place limit acts of violence whether it is committed against humans or the place in its physical form. The type of place formed the nature of behavioral attitude and ethical breach, which also steered the narrative dynamics.

Keywords: Novel, Violence, Narration, Buthaina Elissa, Labyrinth Maps.

The Author:

Dr. Dalal Bander Al-malki

- Associate Professor at the College of Science and Humanities in Huraymila, Imam Muhammad ibn Saud Islamic University, Riyadh, KSA.
- PHD in Arabic Language and Literature in 1437 H., King Saud University, with a research entitled "Resistant Reader: Conflicting Values and Ideologies between Text and Recipient. The research was published by Alintishar Publishing House in 2016.

Publications:

1- A poetry collection entitled (Passing Me like a Dream).

2- A poetry collection entitled (Interpretation Interstice: Spirit Space).

3- A poetry collection entitled (And I Woke Up).

4- A story collection entitled (Hymns at My Grandmother's Altar).

Scientific Papers:

1- A research entitled: Al-Mutanabbi as Person and Character in "Cuckoo's Nest" Novel.

2- A research entitled: In-Depth Reading into Hamzah Shihata's Letters Literature. It was presented at the Thirteen Text .

3- A research entitled: Linguistic Fragility Phenomenon in Youth Novels.A research entitled: Southern Heritage in the Novel "Dancing": Dancing Example.

4- A research entitled: Place in Saudi Novels – North and South Examples.

5- A research entitled: Autobiography in University Research – An Approach to Aicha Alhakami's Dissertation, the Seventh Literary Criticism held at the Literature Club in Riyadh, 1439 H.

Doi 10.34120/0757-044-634-001
Monograph (634)

Place and Violence Formations in Buthaina Elissa's Novel (kharaet altyh)

Dalal Bander Al-Malki,Ph.D.
Department of Arabic language
College of Sciences and Humanities
Al-Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University
Saudi Arabia

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES - KUWAIT UNIVERSITY

Editorial Board

- **Prof. Taghreed Alqudsi**
  Editor - in - Chief
  Department of Information Studies
  Kuwait University
- **Prof. Baqer Salman Alnajjar**
  Bahrain University - Bahrain
  Visiting Prof. Sociology and Social Service Department - Kuwait University
- **Prof. Numan M. Jubran**
  Irbid University - Jordan
  Visiting Prof. History Department - Kuwait University
- **Prof. Adnan Y. Alotoum**
  Psycology Department - Yarmouk University - Jordan
- **Prof. Mashael Al-Hamly**
  English Department and Literature
  Kuwait University
- **Dr. Abdullah Mohamed Aljasmy**
  Philosophy Department
  Kuwait University
- **Dr. Ibraheem Nagy Al-Hadban**
  Department of Political Science
  Kuwait University
- **Dr. Ahmed Mubarak AlHasem**
  Geography Department
  Kuwait University
- **Dr. Asad H. AL-Saleh**
  Arabic Department
  Indiana University - USA
- **Maha Ibrahim Al-Msad**
  Editorial Manager

Advisory Board

- **Prof. Basil Hatim**
  American University
  Sharjah - United Arab Emirates
- **Prof. Ibrahim Al-Sa'afin**
  Department of Arabic Language and Literature - Jordan University
- **Prof. Hamdi Hasan Abul Enein**
  Faculty of Mass Communication
  Misr International University
- **Prof. Sari Hanafi**
  President of the International Sociological Association - American University- Beirut
- **Prof. Mona Baker**
  Manchester University
  United Kingdom
- **Prof. Abdul Qader Al-Fasi Al Fehri**
  Department of Arabic Language and Literature -Mohammed V University
- **Prof. Abdullah Al-Walee'i**
  Geography Department
  King Saud University
- **Prof. Ma'moun Fandi**
  Director of London Institute of Strategic Studies - United Kingdom

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

Academic Publication Council - Kuwait University

REFEREED SCIENTIFIC QUARTERLY IN THE HUMANITIES, SOCIAL SCIENCES & LITERATURE

Volume 44, 2023

Rates:

Kuwait: K.D. 0.500, Bahrain: BD 1, Qatar: RQ 10, Emirates: DH 10,
Saudi Arabia: RS 10.

Cost per issue in Arab Countries: Equivalent to one US dollar

Cost per issue in other Countries: Equivalent to three US dollar

● Annual Subscription (individuals):

1 Year: Kuwait: 4 K.D., Arab Countries: 6 K.D., Foreign Countries 22 dollars.
2 Year: Kuwait: 7 K.D., Arab Countries: 10 K.D., Foreign Countries 37 dollars.
3 Year: Kuwait: 10 K.D., Arab Countries: 14 K.D., Foreign Countries 52 dollars.
4 Year: Kuwait: 13 K.D., Arab Countries: 18 K.D., Foreign Countries 67 dollars.

● Annual Subscription (institutions):

1 Year: Kuwait: 22 K.D., Arab Countries: 22 K.D., Foreign Countries 90 dollars.
2 Year: Kuwait: 37 K.D., Arab Countries: 37 K.D., Foreign Countries 150 dollars.
3 Year: Kuwait: 53 K.D., Arab Countries: 53 K.D., Foreign Countries 210 dollars.
4 Year: Kuwait: 67 K.D., Arab Countries: 67 K.D., Foreign Countries 270 dollars.

All correspondence and enquiries must be addressed to:

Editor

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES
P.O.BOX 17370 EL-KHALDIAH - KUWAIT 72454
Tel: 24830256 - Fax: 24830256
ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab
E-mail: aass@Ku.edu.Kw
http:// apc. kuniv.edu.kw/AASS/

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى:
EBSCO Publishing Products
دار المنظومة: www.mandumah.com
UIrich's Periodicals Directory 263117

The Publications of The Academic publiction Council

journal of the Social Sciences 1973, Kuwait Journal of Science and Engineering 1974, journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies 1975, Authorship Translation and Puplication Committee 1976, Journal of law 1977, Annals of the Arts and Social Sciences 1980, Arab Journal for the Humanities 1981, The Sducational Journal 1983, Journal of Sharia and Islamic Studies 1983, Arab Journal of Administrative Sciences 1991.

ANNALS OF THE
ARTS AND SOCIAL SCIENCES

A Refereed Academic Quarterly, Academic Publication Council - University of Kuwait

المكان وتشكلات العنف
في رواية بثينة العيسى (خرائط التيه)

Place and Violence Formations in Buthaina Elissa's Novel (kharaet altyh)

Dalal Bander Al-Malki,Ph.D.
Department of Arabic language
College of Sciences and Humanities
Al-Imam Muhammad Ibn Saud Islamic University
Saudi Arabia

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

Academic
Publication Council

ISSN: 1560 - 5248

Monograph 634 - Volume 44

1445 A.H / December 2023